

لرامون المتنفس الترجمة

يناير ١٩٤٦

# فِلَادِيْكُوكْلَان

محَكَ في الشَّاهزادِ الْمُقْبِسِيَّةِ وَعَدَلَ فِيْهَا بِالْمُزَبَّرِ الْمُغَوِّبِ

---

تأليف

إسماعيل تظاهر

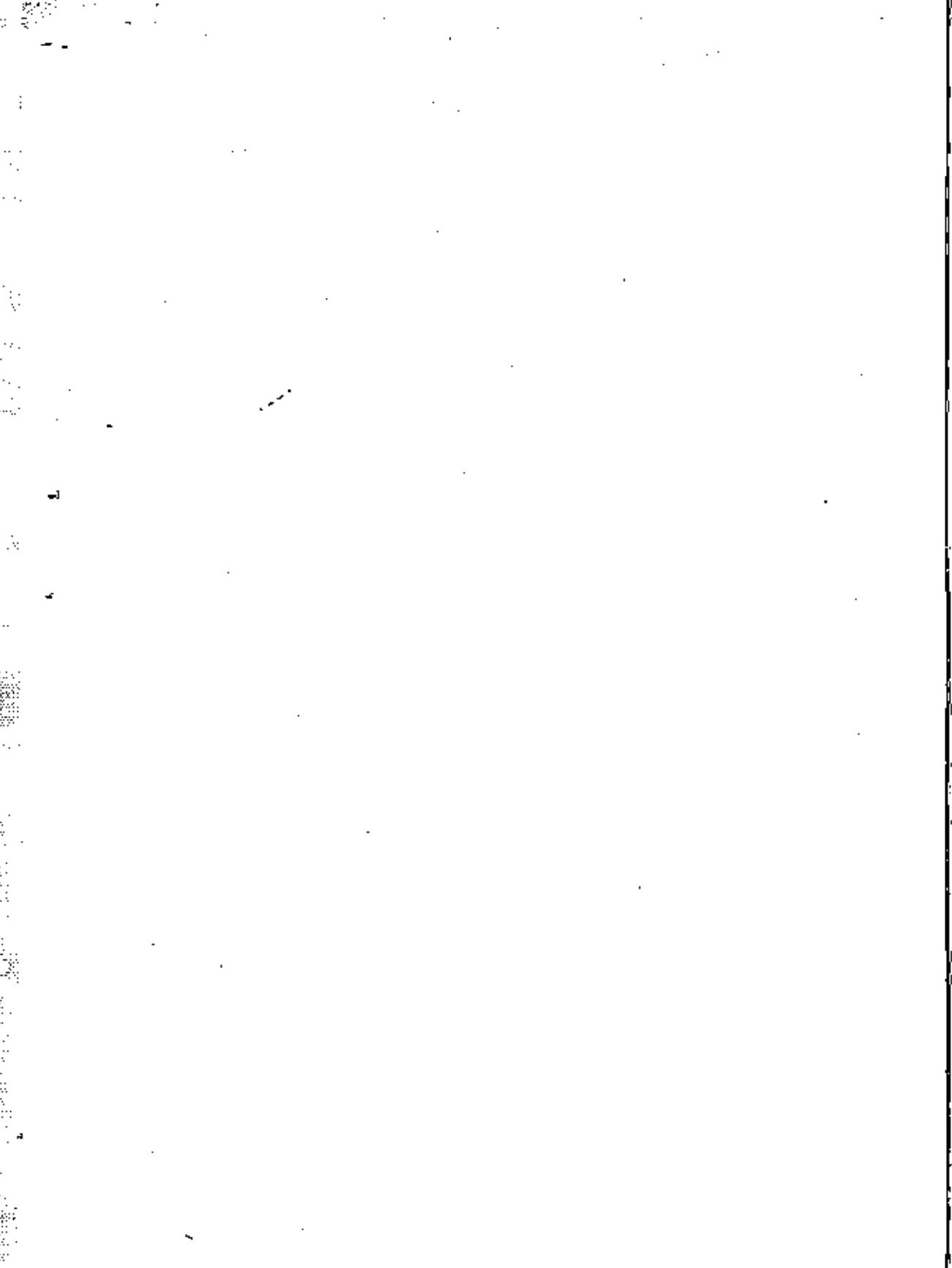
رئيس تحرير المتنفس

جميع حقوق الطبع محفوظة للمنتف

---

طبع بطباعة المتنفس للطباعة

١٩٤٦



## مقدمة

اتجاه مبارك ذاك الذي حل جلة من متخصصي هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين .

ومنها يمكن من أسر تلك القرارات ، وبهذا يمكن من أسر البحث التي ألقاها في المؤتمر من أهل الرأي ، فانها جيداً تطوي على اتجاهات تنظيمية ، لا تعدى تنظيم مدارج التعليم والنظر في بعض خصائصه ، مع الاحتفاظ بالروح التقديم الذي جرى عليه التعليم حتى الآن ، أو على الأقل بأكفر ما في هذه الروح من ماهيات . بل إن الأمر قد تعدى هذه الاتجاهات إلى الكلام في مسائل تحريرية منها تنشئة حس الرجال . ولنكن لنا أن نتكلّم في مثل هذا . فليس المجال مجال بقدر ما تنصّدّ له المؤتمر ، وإنما المجال مجال القول في الفرض الذي ينشد التعليم ، والمرس الذي تؤدي إليه التربية .

لارب مطلقاً في أن لكل عمل انساني غرض أصيل يرمي إليه . فما هو الفرض الذي رمي إليه من التعليم ؟ وما هي السبيل التي ينبغي أن نسوق فيها الشباب ؟

ذلك ما لم يعرض له المؤتمر بطريقة واضحة . وعندني أن الفرض الأساسي من التربية هو تنشئة رجال مستقرين . رجال ، الاستقلال أخص عيّزاتهم . رجال مستقرون في الرأي والظاهر وفي كسب الرزق الحلال ، بمحض لضعف فيه صفة التقطل الاجتماعي والتراكم ، بقدر ما تقوى فيهم صفة الاتجاج والأماماة .

أريد أن أقول إن التعليم الصحيح الذي يسد هذا الفرض ، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية للتي تكتنفتنا في هذه البقعة التي نشطها من كثرة الأرض . كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه النعقة من الرجال ، هو التعليم الذي يتعذر بثقافتنا التقليدية .

هذه التربية الجديدة المقتطعة من صميم يديتنا ، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظرته ، فك الأغلال . والاتجاه نحو آفاق الممارسة الاجتماعية المسليمة من أمر اسن التعليم والجامع الاجتماعي .

طبع الآباءِ الجانـب ، عـافـيه من قـوـة المـقاـومـة الشـامـيـة ، الفـرسـ والـرـومـ وـاـرـومـانـ والـمـرـبـ ، وـالـمـالـيـكـ وـالـأـرـاكـ ، وـلـاـ يـزالـ مـسـنـدـاـ الـابـلـاعـ خـصـبـ فـيـتـصـرـيـةـ منـ أـمـالـ هـذـهـ الـقـيـمـاـ حـسـرـيـاتـ الـيـظـامـ ، وـهـوـ قـائـمـ فـيـ عـقـرـ حـلـيـهـ الصـغـيرـ ، وـفـيـ كـثـرـ يـهـهـ الطـيـفـ ، تـلـرـكـ دـورـاتـ الـحـظـ تـدـورـ بـالـسـعـدـ حـيـاـ وـالـخـسـ حـيـاـ آخـرـ ، وـمـاـ يـهـهـ فـيـ الـحـيـاةـ مـنـ شـيـءـ . إـلـاـ أـنـ يـضـعـكـ سـاخـرـاـ مـنـ الـأـمـ وـالـأـقـدـارـ .

عـلـىـ أـنـ الـأـشـابـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ تـحـصـيلـ حـاـصـلـ : وـالـاسـطـرـادـ فـيـ ذـكـرـ الـشـارـمـ تـحـسـيـنـ . لـأـنـاـ شـعـرـ شـعـورـاـ كـمـلـاـ بـأـنـ الـأـدـبـ الـمـصـرـيـ أـمـ مـعـ مـسـ . وـإـنـ شـئـ قـلـ إـنـهـ فـرـضـ لـاـ حـقـيـقـةـ لـهـ . وـأـنـاـ أـنـصـدـ بـالـأـدـبـ الـمـصـرـيـ . الـأـدـبـ الـمـقـطـلـ مـنـ جـاتـنـاـ وـمـنـ أـشـنـاـ وـمـنـ أـجـاتـنـاـ . الـأـدـبـ الـذـيـ إـذـاـ قـرـأـهـ تـبـيـنـ فـيـ مـصـرـ وـأـرـضـ مـصـرـ وـسـيـاهـ مـصـرـ وـتـارـيـخـ مـصـرـ وـعـلـىـ الـجـلـةـ كـلـ مـاـ تـوـجـيـ بـهـ مـصـرـ مـنـ الـمـوـجـاتـ الـدـفـيـةـ فـيـ قـوـسـنـاـ الرـمـيـةـ فـيـ طـبـعـاـنـاـ الـحـائـرـةـ فـيـ أـرـواـحـنـاـ .

أـمـ الـبـ فيـ كـلـ هـذـاـ نـهـرـ أـنـاـ بـعـدـنـاـعـنـ تـنـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ ، بـلـ أـنـاـ قـطـعـنـاـ عـلـىـ بـالـمـاضـيـ وـهـيـمـنـاـ فـيـ فـلـوـاتـ لـاـ نـعـرـ فـيـهاـ طـرـيقـاـ يـُـسـلـكـ ، لـاـ إـلـىـ الـأـمـامـ لـنـمـيرـ أـوـرـيـينـ صـرـفاـ . وـلـاـ إـلـىـ الـوـرـاءـ لـنـعـودـ إـلـىـ مـصـرـيـتـاـ مـرـةـ أـخـرـ . وـإـذـنـ فـنـحـنـ فـيـ السـبـهـ . وـلـكـهـ اـبـ الـذـيـ سـوـفـ لـاـ تـخـرـجـ مـنـ فـلـلـاتـ مـاـ دـمـنـاـ غـيـرـ قـادـرـينـ عـلـىـ تـقـيمـ حـتـائقـ وـجـوـدـنـاـ تـقـيـمـاـ صـحـيـحاـ . وـمـاـ دـمـنـاـ مـاـجـزـنـ عـنـ إـدـرـاكـ تـلـكـ الـلـفـتـةـ الـأـوـلـيـةـ . حـقـيـقـةـ أـنـ تـنـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ هـيـ الـمـلـحـاـ الـأـخـرـيـ الـذـيـ يـرـفـظـ فـيـنـاـ «ـاـرـوـحـ الـمـصـرـيـةـ»ـ ، الـيـيـ مـنـ طـرـقـهـاـ نـسـكـرـقـ الـأـدـبـ الـمـصـرـيـ الـذـيـ يـسـفـيـ أـنـ يـكـوـنـ مـنـ حـيـاتـنـاـ الـأـدـبـ بـنـاءـ الـجـمـاـزـ الـمـفـسـيـ فـيـ الـحـيـوانـ . فـيـ تـهـمـ الـأـدـبـ الـأـخـرـيـ نـمـ عـشـ<sup>(١)</sup> أـدـبـ جـدـيدـاـ مـلـأـتـاـ لـادـبـاـ وـمـشـاعـرـاـ وـأـخـيـلتـاـ . وـفـيـ الـوقـتـ تـهـمـ تـقـرـدـ الـتـغـيـارـاتـ . تـلـكـ الـفـيـاـتـ الـتـيـ اـسـمـ أـدـبـاـ وـتـسـدـهـ . لـاـنـ أـدـبـاـ الـحـدـيدـ أـسـفـ مـنـ أـنـ يـفـرـزـهـاـ إـلـىـ الـخـارـجـ جـسـهـ الـتـهـمـ الـضـيـرـ

هـذـاـ مـنـ حـيـثـ الـأـدـبـ . أـمـ الـوـطـنـةـ الـمـصـرـيـةـ ، وـوـصـفـهـ بـأـمـاـ وـطـيـةـ ظـاهـرـيـةـ . فـلـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ حـبـ الـأـغـرـابـ . وـلـاـ إـلـىـ حـبـ النـقـدـ بـغـيرـ دـلـيلـ يـقـامـ . أـوـ حـجـةـ مـقـرـبةـ . هـذـاـ قـسـمـ الـوـطـنـةـ

(١) يـلـقـيـ الـأـدـبـ فـيـ تـسـعـونـ جـرـبـاـ مـنـ الـسـطـرةـ

وهما يكن من أسر الباحث الأوروبي في الشؤون المصرية، وبهَا يكن من عالمه ونَكِنْ  
فيه، فإنه من التمذر عليه كافال متر «مان» في تقريره، أن يلم به المام المحيط بالمقاييس  
الأجتماعية التي يحس بها المصريون أنفسهم، من غير استعانته بأمراء أو نظريات. ذلك لأن  
لكل أمة إحساساً بما يدورها من تفاصيل، لن يفقه الغرب عنها شيئاً من خصائصه، إلا  
بالمطلب الشديد، وطول التأمل والتفكير. مثل ذلك أن التقريرين الذين وضعهما العالمان  
الأوربيان لم يساوا المقاييس الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم، ذلك في حين أن  
كل مصرى يشعر عموراً عميقاً بأن عصرًا من عصور التطور الفكري قد آذن بأن  
تشرق شمسه في سماء مصر، وأن عصرآ آخر قد أخذ في الأفول. أضعف إلى ذلك أننا نشعر  
بأن حالاتنا الاجتماعية قد انحنت في تطورها متوجهةً ألى على التعليم في مصر غيّراً جديداً  
لم يشر به آباءنا، وقد نشعر بعض الأحيان بتيهٍ من القلق، وقد نشعر بأن هذا القلق قد  
يتضاعف بعض الأحيان، حتى ليذهب بالبعض إلى اليأس من مستقبل آلاف العائلة الذين  
يتغبون اليوم في المدارس وتخرجهم الكلبات زرارات كل عام. بل إننا أخذنا نشعر بكل  
ما شعر به الأستاذ هنري جوس عند ما قال: إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية  
الأركان في جمיה يكتب على المتعلمين فيها عيش الفقر والذلة، لا من فيه من البُعد عن  
حقائق الطبيع البشري يقدر ما في محاولة تلك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته،  
من بعدٍ عن حقيقة الطبيعة الكونية، [١١]

ولقد يُماري منكر في أن ذلك الشعور العميق الذي يكتنز تفكير الكثيرون من  
المصريين، إيمانه أساسه القاعدة البعيدة عن إدراك الذين لا يفكرون في الأعمالي إلا بقدر  
ما يفكرون في أداة لتخريج المتعلمين، ولا يزيد خطوه في نظره عن خطوة آلة تخرج أحذية  
أو لفافات تسفع، في نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التي يدرها، ولا يعرف عنها إلا أمرين:  
شكلاها الظاهر، ونُزُها الذي يحبه منها.

على أن النمر الذي أخذنا نحبه من أداة التعليم عندما قد جددت عليه ظاهرتان: الأولى:

أن طبعه أخذ ينبعـر، والثانية : أن سنته أخذ ينبعـر مع كثرة الاتـاحـاج . ولذلك في آنـماـ ظـاهـرـتـانـ يـطـلـلـ بـهـماـ كـثـيرـ منـ الـظـاهـرـ الـاجـتمـاعـيـ الـتيـ غـرـ عـلـىـنـاـ فـيـ كـلـ بـوـمـ صـورـ مـنـهـاـ، وـأـخـصـهـاـ كـثـرـةـ الـسـعـالـيـنـ مـنـ الـمـعـدـيـنـ ، وـالـجـهـدـ الـفـادـحـ الـذـيـ يـلـقـاهـ الـمـحـدـودـ مـنـهـمـ فـيـ تـحـصـيلـ رـزـقـهـ الـحـلـالـ .

ولـأـرـبـ فيـ أـنـ هـذـهـ اـنـظـاهـرـاتـ تـرـجـعـ إـلـىـ أـسـابـ أـخـذـتـ تـنـجـصـعـ مـنـهـ أـكـثـرـ مـنـ نـصـفـ قـوـنـ مـنـ الرـمـانـ ، حـتـىـ أـنـضـىـ بـنـاـ النـطـورـ إـلـىـ الـحـالـةـ الـتـيـ تـكـثـفـنـاـ الـيـومـ . وـلـمـ كـانـ الـغـرـضـ الـذـيـ أـرـىـ إـلـيـ إـلـاـ يـنـجـحـ إـلـىـ وـصـفـ الـعـلـاقـةـ الـتـيـ تـقـومـ الـيـوـمـ بـيـنـ الـتـعـلـيمـ وـالـحـالـةـ الـاجـتمـاعـيـ ، وـالـمـهـمـ الـكـبـرـيـ الـمـلـقاـةـ عـلـىـ عـاتـقـ الـتـعـلـيمـ فـيـ تـنظـيمـ الـحـالـةـ الـاجـتمـاعـيـ ، وـدـرـ الـأـخـطـارـ الـتـيـ قـدـ يـتـرـجـضـ طـاـجـعـ الـجـمـعـ الـمـصـرـيـ ، بـقـدـرـ مـاـ فـيـ مـسـطـاعـ الـتـعـلـيمـ أـنـ يـدـرـأـ مـنـهـاـ ، وـجـبـ أـنـ أـظـهـرـ أـولـاـ أـنـ أـخـدـ الـأـخـطـارـ الـتـيـ يـتـرـجـضـ طـاـجـعـ الـكـيـانـ الـاجـتمـاعـيـ فـيـ مـصـرـ مـنـ نـاحـيـةـ الـتـعـلـيمـ ، أـنـ الشـابـ الـتـعـلـيمـ فـيـ مـدـارـمـ الـمـلـيـاـ يـقـدـمـ مـعـ الـتـعـلـيمـ أـسـتـقلـالـ الـذـانـ ، باـعـتـارـهـ قـرـةـ الـحـاتـيقـةـ مـسـتقـلـةـ عـنـ الـقـوـيـ الـأـخـرـيـ الـتـيـ تـكـثـفـمـ . وـقـدـ يـشـرـعـ بـذـلـكـ الشـابـ الـتـعـلـيمـ ، وـقـدـ يـشـرـعـ بـهـ الـذـينـ يـعـلـمـونـ أـوـلـادـهـمـ ، حـتـىـ لـمـ يـنـجـحـ أـنـ بـعـضـ الـقـادـرـينـ عـلـىـ الـتـكـبـيرـ يـنـظـرـونـ نـظـرـةـ تـنـاؤـمـ إـلـىـ الـمـسـقـبـ الـقـرـيبـ ، وـإـنـ لـمـ يـمـ فـيـ ذـلـكـ لـحـنـاـ ، وـإـنـ لـمـ يـمـ فـيـ نـشـأـةـهـ لـأـسـبـابـ تـبـرـرـهـ وـحـقـائـقـ تـعلـلـهـ ، وـمـنـ أـحـلـ أـنـ نـظـيرـ تـطـرـوـرـ الـحـالـاتـ الـتـيـ أـفـضـتـ بـنـاـ إـلـىـ هـذـهـ الـاتـاحـجـ ، يـنـبـغـيـ لـنـاـ أـنـ ذـكـرـ حـتـائقـ خـلـآـ نـرجـعـ فـيـهـ أـنـ تـارـيخـناـ بـعـضـ الشـيءـ :

أـولاـ : حـكـمـ مـصـرـ مـنـذـ أـبـدـ الـعـصـورـ عـلـىـ لـقـامـ تـابـيـنـ الـطـبـقـاتـ الـاجـتمـاعـيـ ، وـعـلـىـ أـسـاسـ الـفـوارـقـ فـيـ الـلـتـوـقـ الـعـامـةـ . غـيـرـ أـنـ اـنـطـيقـاتـ أـخـذـتـ تـقـاـبـلـ حـقـوقـهاـ الـطـبـيعـيـةـ وـتـسـتـويـ مـنـ بـيـنـهاـ الـفـوارـقـ مـنـ عـهـدـ قـرـيبـ ، فـالـكـمـ الـآنـ مـتـاـوـدـ أـمـاـنـ الـتـوـبـونـ ، وـلـوـ نـظـرـيـنـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ ، وـلـكـ مصرـ حـقـ الـاتـاحـ وـالـكـمـ مـنـ طـرـيقـ جـمـيـعـ النـوابـ . فـأـخـدـ مـصـيرـ وجودـ طـبقـتينـ مـتـاـيـزـيـنـ فـيـ الـلـتـوـقـ الـمـذـبـحةـ يـرـوـلـ شـيـئـاـ بـعـدـ شـيـئـاـ . أـلـفـقـدـ كـانـ مـصـرـ الـتـدـيـةـ مـكـوـةـ مـنـ ذـلـكـ طـبقـاتـ هـ : الـكـمـ وـالـكـمـيـوتـ وـالـشـمـسـ ، وـمـنـذـ غـزـوـ الـأـسـكـنـدـرـ وـحـكـمـ الـسـطـانـ الـمـلـيـتـ إـلـىـ حـكـمـ الـمـلـيـتـ حـتـىـ هـذـهـ الـاحتـلاـلـ الـأـجـيـلـيـ ، كـانـ هـنـاكـ مـلـيـتـاتـ تـحـمـيـلـ حـقـ وـقـهاـ وـأـمـيـةـ بـيـازـاتـهاـ . أـمـاـ الـآنـ فـقـدـ اـتـتـ هـذـهـ الـفـوارـقـ لـفـرـيـطاـ ، وـقـرـلـ نـظـرـيـتاـ ، لـأـنـاـ لـأـرـالـ

ن تكون من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصوات فلاح في مسكنته أن يقاضي أعظم عيّش في البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق .

ثانياً : بالرغم من أن نظام العقبات المتباينة في الحياة والحقوق ، هو النظام الذي أثر في مصر منذ أيام العصور ، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضىـن كانت تكفل الاستقلال المادي لطبقتي ذوي الامتيازات وال فلاجـين معاً ، بأن تحـلـ طبقة الفلاحـين وهي طبقة العامة ، عـبـ كـفـاـيـةـ نـسـبـاـ وـكـفـاـيـةـ حـكـامـهاـ ، بـقـدـرـ الـاسـتـطـاعـةـ ، فـإـنـ الـحـالـةـ الجـديـدةـ ، حـالـةـ التـساـوىـ أـمـاـنـ القـائـونـ فـيـ الـحـقـوقـ ، قـدـ أـحـدـتـ ظـاهـرـةـ اـجـتمـاعـيـةـ جـديـدةـ ، بـعـلـهاـ أـنـ الـفـلاحـ قدـ خـرـجـ مـنـ كـوـنـهـ عـاـمـلاـ لـاحـقـ لـهـ فـيـ مـلـكـيـةـ الـأـرـضـ ، إـلـىـ وـجـلـ حـرـرـ لـهـ حـقـ الـعـلـمـ مـتـىـ شـاءـ ، وـالـانـتـطـاعـ عـنـ مـتـىـ أـرـادـ ، وـلـهـ فـوـقـ ذـلـكـ حـقـ السـلـكـ ، بـلـ تـقـولـ إـنـ اـنـتـقـلـ مـنـ عـاـمـلـ إـقـطـاعـيـ إـلـىـ وـجـلـ حـرـرـ . سـذـقـ بـذـاكـ تـطـورـ جـديـدـ .

ثالثاً : هذا التطور الجديد الذي حلىـتـ بـتـحرـيرـ الـفـلاحـ الـمـصـريـ ، وـعـنـقـهـ منـ نـظـامـ الـافـطـاعـ الـذـيـ ظـلـ خـاصـاـ لـهـ سـلـوـالـ القـرـونـ ، قـدـ قـلـ آـيـةـ الـحـيـاةـ الـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ مـصـرـ ، فـإـنـ هـذـاـ الـفـلاحـ لـمـ يـكـنـ يـقـصـهـ مـنـ شـيـ لـبـكـونـ مـسـتـقـلـاـ نـعـمـ الـاسـتـقـلـالـ فـيـ حـيـاتـهـ إـلـاـ قـائـونـ يـحـمـيـهـ ، وـنـظـامـ اـجـتمـاعـيـ يـجـعلـهـ يـشـعـ بـأـنـ قـوـةـ هـاـ أـنـرـ فيـ الـحـيـاةـ ، فـلـاـ وـقـعـ ذـلـكـ بـالـعـلـمـ أـصـبـحـ طـبـقـةـ الـدـائـيـ أـيـ طـبـقـةـ الـفـلاحـينـ الـمـصـريـنـ ، وـالـيـ كـانـ عـلـيـهاـ أـنـ تـخـفـظـ اـسـتـقـلـالـهـ وـاسـتـقـلـالـ طـبـقـةـ الـيـ تـمـلـهـ ، سـيـدةـ نـسـبـاـ ، وـأـصـبـحـ طـبـقـةـ الـمـلـاـكـ وـأـصـحـابـ الـجـاهـ ، كـماـ كـانـ فـيـ الـحـالـةـ الـأـوـلـىـ ، عـبـشـاـ عـلـيـهـ ، وـلـكـنـ فـيـ سـوـرـةـ جـديـدـةـ ، أـخـدـتـ شـكـرـ حـرـرـ خـيـرـ يـعنـ حـبـقـتـيرـ .

رابعاً : ولـدـ الـحـصـرـ مـظـهـرـ هـذـاـ صـرـاعـ فـيـ طـبـقـةـ تـحـرـرـتـ مـنـ قـيـودـ النـظـامـ الـافـطـاعـيـ ، وـهـيـ طـبـقـةـ الـمـتـحـجـةـ الـعـامـةـ بـيـدـهـ ، فـأـصـبـحـتـ مـسـتـقـلـةـ بـنـسـبـاـ ، وـهـيـ طـبـقـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ الـحـرـرـ وـالـقـرـسـ وـالـحـمـادـ فـيـ بـلـادـ لـنـ يـزـرـعـهـاـ غـيـرـهـ ، وـلـنـ يـتـقـعـ بـهـ غـيـرـهـ ، ذـهـيـ مـسـتـقـلـةـ مـاـ دـامـتـ مـنـ فـوـقـ الـأـرـضـ الـيـ يـغـدـيـهـ النـيلـ بـشـارـيـهـ الـمـحـيـيـةـ ، وـهـذـهـ الـمـعـارـةـ الـجـديـدـةـ أـحـدـتـ ظـاهـرـةـ أـخـرىـ .

خامساً : عـكـسـتـ النـسـنـةـ الـأـخـرىـ ، طـبـقـةـ أـصـحـابـ الـجـاهـ عـلـىـ مـثـلـ آـخـرـ تـقـيـ بـهـ النـاتـجـ الـيـ تـقـرـتـ عـلـىـ اـسـتـقـلـالـ طـبـقـةـ الـعـامـةـ ، وـلـمـ تـحـمـدـ مـنـ وـسـةـ أـقـرـبـ مـنـ نـعـيمـ أـوـلـادـهـ لـيـكـوـنـواـ

حكم البلاد . ولكن سقة الملاحين أخذت تراوح العقبة الأولى في هذا المضمار ، ومضى الآزرياء منهم يمنون أولادهم ليكونوا حكامًا ، فتجروا . ولكن بعد أن مُلئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة ، قام شعورٌ جديدٌ بأن أولاد موظفي الحكومة والآزرياء الذين أخرجوا أولادهم من عباءة الفلاحمة إلى محيط العلم ، أذلُّ استقلالاً مع تعليمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآذ والمؤفت بين معلم متصل يتعلّم إلى مرتب أبيه أو زوجته ليعيش ، وفلاح جاهر لا عمدة له في الحياة إلا بغيره الموروثة في فلح الأرض وقوتها عضلةه وعراته وفأسه ومشيتنه ، فهو رجلٌ مستقلٌ تمام الاستقلال في الحياة ، على العكس من المتعلّم المتصل . فإذا كانت الغاية من التعليم تخرج بمع رجالٍ متصلين يكافرون في الحياة كفاحاً للنجاح ، لا كفاح المتعلّم لكافح غيره ، وأينا أن التعليم لم يقرّ ببلوغ الغاية الأخيرة منه ما دعانا نرى أن ابن الصلاح بغيره الموروثة مستقلٌ في حياته منتج بعمله ، في حين أن المتعلّم يفقد مع التعليم استقلاله الثاني ، ويتعلّم دائمًا إلى حياة الركود ، لا إلى حياة الكفاح التي يجيء له تعليمه طريقها الواجب .

على أن قليلاً من التأمل في هذه الاتمامات التي ألمتنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي اتّابعه منذ خمسين سنة خلت ، يحمل المفكّر على المفتي خاتمة أخرى في تأمّلات إذا أحطنا بها ، تكون قد فرغنا من التسديد فالنكرة التي زرّد أن تكون الدعامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر ذهبيًّا ما ذاهبيًّا :

أولاً : إن طرق التعليم التي عكفتنا عليها إلى الآن مطرّت الأمة ممكرين ، الأول : ممكرون التعميدين على اقواند الأوروبية التي اتبعها في مدارسنا ، وخرجوا بهم هذا التعليم عن جوّ ثقافتنا التقليدية . مأذ بجروا لصف مدرسي ، والناتي : ممكرون الملاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية ، فصاروا بذلك في القرى العشرين وبعقلتهم في مصر الفرمودية .

ثانيًا : كثيرون ممكرون غير متحاسّرون ، بل مختلفين تمام الاختلاف ، بحسب لاتبعي

(١) قد يظن البعض أن المثقفين والكتّاب الذين يتعلّمون في المدارس الاجنبية قد يؤذنون ممكراً ؟ إنما ولكن أقول أن المثقفين في المدارس الاجنبية مدارسهم المفتوحة ، الذين تخرجهم المدارس الاجنبية . من حيث الأقصى يهدى المدارس الاجنبية ، مدارسهم ولا يهدى برأي .

بعضها من دأبطة الأ الرابطة الطبيعية التي هي رابطة الدم ، فكما بذلك أحبه بالمسكر الذي يرغب دائمًا في أن يزيد من المدوع التي تعمل بين طبقات الأمة ، لا أحبه بالملح الذي ي العمل دائمًا على أن يرأب تلك الصدوع ، ويقرب بين الطبقات حفاظاً للتوازن الاجتماعي . ولا شك في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها ، وعن غير قصد ، إلى حرب الطبقات التي تُخْنَى مقدمون عليها أحـمـاً ، إذا استمر التعليم على نـادـجـهـ الـحـاضـرـةـ ، وأخذت تلك المدوع والتـوارـقـ تـزـيدـ عـامـاًـ بـعـدـ عـامـ .

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت به الثقافة الحديثة سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوروبا ، أصبح لا يشق في جو بلاده فهم الثقافة التي نشأ فيها . فتلحظ فيه روح التراث بأبيه الفلاح وأمه الفلاح ، وتأنس فيه زرعة قدية تدفعه دائمًا إلى حب العودة إلى الجو الذي نشأ فيه ، فتراه فلتًا غير مستقر ، هدأً لا ينـاءـ ، يردد لو تناـحـ له الفرصة ليعود إلى الجو الذي كان فيه ، هذا أعتبره الحياة ، كما يحدث دائمًا ، واضطـرـ إلى البقاء في جو بلاده هجر الريف ، مرياه الأصيل ومربر آبائه وأجداده منذ قرون طـرـبةـ ، ومنـذـ تـبـالـدـهـ متـذـ أـزـمـانـ لا تـعـيـهـ الـذـكـرـياتـ ، ليسـكـنـ مـدـيـنـةـ منـ المـنـ، فيـقـضـلـهاـ معـ عـيـشـ الـقـرـ والـعـوزـ ، عـلـىـ الـرـيفـ معـ عـيـشـ الـرـاحـةـ وـالـمـنـاءـ ، وـتـرـاهـ يـنـزـعـ إـلـىـ الـغـرـاجـ وـالـدـاعـةـ فيـ مـدـيـنـةـ ، دونـ الـمـعـلـ الذيـ هوـ أـجـدـرـ بـعـيـاةـ الـجـوـلـةـ فيـ الـرـيفـ . وـمـنـ هـنـاـ تـكـوـنـ الطـبـقـاتـ الـمـبـرـمـةـ بـالـحـبـةـ ، الـعـامـةـ عـلـىـ الـهـدـمـ دـوـنـ الـإـصـلـاحـ ، الـزـاءـةـ إـلـىـ الـأـفـكـارـ الـمـطـرـفةـ وـالـتـورـاتـ . أولـئـكـ الـذـينـ عـنـامـ الـعـلـمـ هـنـيـ جـيـسـ بـكـلـمـتـهـ الـيـ مـتـنـاهـاـ مـنـ فـلـ .

رابعاً : وأنت أيـضاـ ولـيـستـ وجهـكـ رأـيـتـ أـنـ الـمـسـكـرـينـ الـذـينـ كـوـنـهـمـ الـتـعـلـيمـ الـمـصـرـيـ ظـاهـراـ جـلـيـاـ . وأـنـتـ تـتـرـجـعـ الـوـلـدـ مـنـ حـضـنـ أبيـهـ الـنـلاحـ وـأـمـهـ الـفـلاحـ ، فـكـذاـكـ تـنـزـعـهـ مـنـ حـضـنـ «ـمـصـرـ الـقـرـعـونـيـ»ـ اـنـتـهـيـ فيـ حـضـنـ «ـمـصـرـ الـأـورـوبـيـ»ـ وـتـخـرـجـ بـعـدـ ذـاكـ قـاصـيـاـ أوـ عـاصـيـاـ أوـ هـنـدـسـاـ أوـ تـاجـرـاـ أوـ رـجـلـ إـدـارـةـ أوـ غـيرـ ذـاكـ ، وـلـكـنـ بـرـوحـ أـورـوبـيـ تـكـسـرـهـاـ تـبـابـ مـصـرـيـ شـفـاعةـ فـضـاحـةـ ، وـبـالـأـخـرـيـ تـخـرـجـ رـجـالـ اـنـتـهـيـ مـلـتـهـ بـتـقـالـبـهـ الـثـقـافـةـ الـقـدـيـعـةـ ، وـأـنـتـ فيـ دـوـرـ الـمـدـلـ ، وـفـيـ الـتـاجـرـ ، وـفـيـ مـرـاـكـرـ الـإـدـارـةـ . وـفـيـ عـسـادـةـ الـطـيـبـ وـمـكـتبـ الـهـنـدـسـ ، وـفـيـ كـلـ دـقـيقـةـ عـلـىـ مـشـهـرـ مـنـ مـشـاهـرـ الـتـفـرـدـةـ بـيـنـ الـمـسـكـرـينـ . فـنـلاحـ

البعيد عن مدينة المدن . والأخرى البعيد عن جوّ الثقافة الأوروبية الذي نشأ فيه القاضي والمحامي والناجـر وـمـأـمور المـركـز وـمنـاـونـ الـادـارـة وـخـبـيـبـ الـقـرـيـة ، يمثل مـسـكـرـ مصرـ الـقـرـنـيـة ، أـمـاـ هـؤـلـاءـ فـانـماـ يـهـنـلـونـ «ـمـصـرـ الـأـورـوبـيـةـ» . ولاشكـ فيـ أـنـ هـذـاـ مـظـهـرـ منـ مـظـاهـرـ الـانـحـالـ الـاجـتـاعـيـ ، لـاـ يـسـأـلـ عـنـهـ فـيـ مـصـرـ شـيـءـ» ، بـقـدـرـ ماـ يـأـلـ التـعـامـ ، وـأـسـاسـهـ الـذـيـ يـتـقـومـ عـلـيـ .

خامساً : بالرغم من أن المتعلم قد نزع يفكـرهـ زـعـةـ أـبـدـعـهـ عـنـ ثـقـافـةـ آـبـائـهـ التقـلـيدـيـةـ ، فقد أثـرـتـ تلكـ الحالـ فيـ مـزـاجـهـ وـفـوـرـانـهـ وـنظـرـهـ الفـنـيـةـ فيـ الـمـيـاهـ ، تلكـ اـنـظـرـةـ الـقـيـ يـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ مـصـرـيـةـ صـمـيـسـةـ ، وـيـجـبـ أـنـ تـحـافظـ عـلـيـهاـ نـقـيـةـ عـنـ سـجـيـتـهاـ الـنـكـونـ مـصـرـيـنـ جـدـيـرـينـ بـالـصـرـيـةـ ، وـكـلـ مـنـ نـاتـجـ هـذـاـ أـنـ الـمـتـعـلـمـ يـضـلـلـونـ أـقـنـعـ قـرـيـةـ أـورـوبـيـةـ عـلـيـ رـيفـنـ الـجـيلـ ، وـمـحـيـرـ اـنـاـ الـفـاقـنـةـ ، حـتـىـ تـقـدـرـقـوـيـ الزـعـةـ الـأـورـوبـيـةـ فـيـ اـعـلـ وـحـيـ الـتـلـ قـسـهـ . وـالـسـبـبـ فيـ هـذـاـ اـنـاـ كـنـاـ فـيـ خـلـالـ الـحـيـنـ عـامـاـ الـلـاـضـيـةـ كـلـبـتـ لـاـ أـوـهـأـ قـطـعـ وـلـاـ ظـهـرـأـ أـبـقـ ، إـذـ اـتـرـعـنـاـ مـنـ أـرـوـاحـ نـاشـتـنـاـ «ـمـصـرـتـهاـ» وـلـمـ تـرـكـ فـيـهاـ مـنـ الـمـصـرـيـةـ إـلـاـ لـوـنـ الـبـشـرـةـ وـلـتـعـامـ بـالـروحـ «ـأـورـوبـيـةـ» ، فـلـمـ نـقـبـ مـصـرـيـنـ كـأـهـلـ الـرـيفـ ، وـلـمـ فـتـطـعـ أـنـ تـكـوـنـ أـورـوبـيـنـ كـنـيـانـ «ـبـيـكـدـلـ سـرـكـنـ»<sup>(١)</sup>

سادساً : بدـأـتـ هـذـهـ الـحـالـ تـؤـثـرـ فـيـ مـرـاقـنـاـ الـحـبـرـيـةـ ، حـتـىـ تـقـدـرـنـاـ إـلـىـ الـقـولـ بـأنـ كـلـ مـاـ هـوـ أـورـوبـيـ جـمـيلـ ، وـكـلـ مـاـ هـوـ مـصـرـيـ رـديـ ، وـكـلـ فـكـرـةـ مـصـرـيـةـ لـعـبـ وـلـطـوـ ، وـكـلـ فـكـرـةـ أـورـوبـيـةـ جـدـ وـدـجـوـلـةـ ، وـكـلـ فـنـ مـصـرـيـ بـدـائـيـ وـغـيـرـ مـتـفـقـ وـدـرـوـحـ الـعـصـرـ ، وـكـلـ فـنـ أـورـوبـيـ ، بـهـمـاـكـازـ فـيـهـ مـنـ بـعـدـ وـنـعـادـ مـعـ زـيـعـاتـنـاـ وـتـقـابـيـدـنـاـ الـمـعـرـيـةـ ، بـلـ وـمـعـ آـدـابـنـاـ الـنـزـعـيـةـ وـالـعـرـفـ الـأـسـانـيـ ، حـضـارـةـ وـعـدـيـنـ ، وـشـكـلـتـ هـذـهـ الـحـالـ فـيـاتـنـاـ وـفـيـاتـنـاـ ، وـفـاسـتـهـمـ لـاـ تـحرـكـ إـلـاـ بـكـلـ مـاـ هـوـ أـورـوبـيـ غـرـبـيـ ، وـفـلـوـحـمـ لـاـ تـهـنـوـ إـلـاـ لـكـلـ مـاـ هـوـ بـعـدـ عـنـ الـمـصـرـيـةـ .

ولا شـبـهـ فـيـ أـنـ الـمـسـكـرـيـنـ يـهـبـاـنـ الـآنـ : الـأـوـلـ لـاعـلـ عـلـ خـرـابـ الـرـيفـ ، وـالـذـانـيـ لاـ حـوـلـ لـهـ وـلـاـ قـرـةـ ، فـسـوـفـ يـهـزـمـ لـيـزـلـ الـرـيفـ خـرـابـاـ . وـإـنـماـ يـخـربـ الـرـيفـ بـخـرابـ الـقـلـوبـ الـتـيـ يـجـبـ أـنـ تـؤـمـنـ بـأـنـ الـرـيفـ هـوـ مـصـرـ ، وـأـنـ مـصـرـ هـيـ الـرـيفـ ، وـأـنـ نـلـذـنـ أـسـوـاقـ

طفل الريف لا أقل ولا أكثر . إنما يغرب الريف بأن نحب المدينة ونهرج الريف ، فكانتنا  
نهرجنا مصر ، ولا نخرج لنا من هذا إلا بأن نصل لثقافتنا الحديقة بثقافتنا التقليدية ، فيكون  
المصري فلا حماً مصريًا ووحماً ، وزرعةٌ وخلقاً ، ثم قاصيًّا وعجميًّا وطبيبيًّا ورجل ادارة من  
بعد ذلك . يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوروبية ، لأن نفس الآية بأن  
نعمل أولًا على حشو مصريتها . فإذا تمَّ لنا ذلك رحنا تبَه بأننا أتينا بأعراض أوروبية ولتحتها

تلك مقدرات لا بدّ منها إذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعاليم  
وسرى كف عن أن تستقصد منها.

20

أظهرت في العبارات السابقة الوجهة التي تربط بين التعليم والملائكة الاجتماعية ، وعندئذ كثيرةً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها انتصالاً ، كبيراً أو صغيراً ، بالحالات الجديدة التي تكتنفنا ، غير أن الاقصارات على تعديل وجهة الارتباط بين التعليم والملائكة الاجتماعية ، وإنقول بأن التعليم يجب أن يتوجه اتجاهات اجتماعية ، أمر يجب أن يعزز باظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض إليها كياننا الاجتماعي ، من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملامستها الاجتماعية .

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا إلى معالجة بعض الأمور علاجًا قائمًا بعض الذي على مبنية الحالات الاجتماعية . وأني لأسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيها قصدوا إليه . وليس السبب برفع إلى تصور منهم ، أو تقصير عن أدائه واجتازم كلية ، وإنما يرجع في الحقيقة إلى أن «سياسة التعليم المعاصرة لا توافقهم بكل الأسباب الفرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تطالب المدرسة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث في عمل التواهير التي تقرب على التوصل إلى سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية ، وقد ما تبع

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعي » شبه فيه بنية الاجتماع الإنساني بكلّيّ متعصّلٍ ، وأخذ يقيس الظواهر المتباينة فيما ويزارن بين حالات خاصة في جسم الفرد وجسم المجتمع . ولاشك في أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال ، جعل بمحضه هذا محتاجاً إلى كثير من التحرير بل لأنّ المبالغ إذا فعلنا أن نغفله عن ذلك الأمر ، قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول إليها بفأمة منككة غير موصولة ولا مزدبة إلى فكرة محدودة ينتهي إليها البحث . ذلك بأنّ بين المحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تغييراً لا يقف عند حدود الظواهر ، وإنما يتعدى إلى التكوين الوظيفي فيها . وقد يعلم الذين يدرّسون علم الاجتماع ، أن المحي يكتسب من خلايا دفيئة هي وحدات بسيطة التركيب تحوي على نوارة هي سر الحياة . ولكن تجمّع هذه الوحدات البسيطة التركيب يفتح حبّاً عريضاً التركيب معقد التكوين جهداً ما تخيل . ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كُلُّ بيت التكوين ، يدرك من وحداتٍ غاية في التعقيد . وعلى معرفتك لهذا الفرق الوظيفي ، يتوقف مسؤولك إلى النتائج الصحيحة . فالخلايا الأفراد لها ولا حياة بغير اندماجها في بنية المكيّ المحي . أما الوحدات ( الذوات العافية ) التي يترك منها الكائن الاجتماعي ، فكلّها كانت أكثر استقلالاً عن ذلك الكائن بوزارتها ونوعيتها واستثناءاتها فيها ، ورجل فرعون ، وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ حياته الاجتماعية ، ويحرّك نحو الرقي الاجتماعي ، وبيت في روح التعليم إلى الارتقاء المبدئي ، وبالجملة على جملة كائناً اجتماعياً معتبراً بأثره العلمي في الحياة . ذلك على العَدَمِ ما لو لمجّبت هذه الوحدات العافية في بنية الكائن الاجتماعي . فإنها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالفعل على رقي الحياة ، لأن اندماجها هذه إنما يسلّمها القدرة على التفكير وتناؤل في حقائق الأشياء ، وينقصها أخلاقها الشخصية ، ويرجحه عام يدعّيها فيها يسمّي الاجتماعيون عقولُ المظاهير .

هذه حقيقة أولية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة إلى القبول من الضموري أن تعهد وأن تجعلها تصبّ أعنيها كلّاً ذكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملًا من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كلّ لّمة من الأمّ . إنما وفدي وعانياً فتاً تناول : أيّي تعليم - عندما يخرج

رجال نفهم من الاستقلال الطلق والعني ما يهمها في المستقبل قوى مؤثرة في الكائن الاجتماعي ، أم على المكس من ذلك ؛ يخرج رجالاً قسماً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي ، فيظلون طوال أحصار ممنورين في عقلية الجاهير ؟ وإن لأمن إذا أقول أن تعليمنا بيدعى أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذي تتطلبه طبعة الحالات الاجتماعية الجديدة ، التي أخذت تشعرنا بأنّا مقدمو زعل انقلابات فكريّة خطيرة .

إذا فواجـب التعليم يـنـبغـي أن يـنـحـصـرـ في إخـرـاجـ رجالـ مـسـتـقـلـينـ بـعـدـيـنـ عنـ اـتـيـازـ روـحـ الجـاهـيرـ . وـتـكـوـنـ اـسـتـقـلـالـ الفـردـ ، يـحـبـ أـذـ يـكـوـنـ بـدـاعـةـ التـعـلـيمـ وـنـهـاـيـةـ . أـمـاـعـمـلـ عـلـىـ شـعـنـ العـقـولـ بـعـىـ الـمـلـوـمـاتـ وـتـكـوـنـ مـلـكـاتـ خـامـةـ فيـ الـأـدـبـ وـالـنـفـنـ ، فـلـنـ يـكـوـنـ لـهـ مـنـ أـثـرـ فيـ الـحـيـاةـ ، وـلـنـ تـقـوـمـ مـنـ عـوـجـ الـكـائـنـ الـاجـمـاعـيـ ، مـاـ لـمـ يـسـتـقـمـ اـسـتـقـلـالـ الذـانـيـ ، وـتـبـرـبـ الـمـلـكـاتـ الـطـامـةـ عـلـىـ هـاشـاهـةـ مـاـ تـطـلـبـ مـقـتـضـاتـ ذـكـ الاستـقـلـالـ .

ولـقـدـ أـظـهـرـنـاـ مـنـ قـبـلـ أـنـ التـلـاحـ أـكـثـرـ اـسـتـقـلـالـاـ فيـ النـاحـيـةـ الـعـلـيـةـ ، مـنـ المـلـعـمـ الـذـيـ فـقـدـ اـسـتـقـلـالـهـ الذـانـيـ ، بـحـكـمـ الـظـرـوفـ الـيـ تـشـعـرـ بـهـ . غـيرـ أـنـ اـسـتـقـلـالـ الـفـلاحـ الـعـاـمـلـ اـسـتـقـلـالـ نـاقـصـ ، إـذـ هـوـ اـسـتـقـلـالـ أـشـبـهـ بـاـسـتـقـلـالـ الـحـيـوانـيـتـ بـاـسـتـقـلـالـ الـأـنـانـيـ ، ذـكـ بـأـنـ عـدـتـهـ فيـ ذـذـ الاـسـتـقـلـالـ قـوـمـ عـلـىـ قـوـةـ عـضـلـاتـهـ وـعـلـىـ صـبـرـهـ وـاحـمـالـهـ وـوـضـاءـعـحـيـةـهـ الـذـيـ يـعـيـشـ مـكـتـفـيـاـ بـهـ . وـعـامـةـ ذـاـ يـمـسـ فـيـهـ شـيـءـ مـنـ مـؤـهـلـاتـ اـسـتـقـلـالـ الـأـنـانـيـ ، وـأـعـاـهـوـ اـسـتـقـلـالـ يـشـارـكـ فـيـ الـفـلاحـ كـثـيرـاـ مـنـ الـحـيـوانـاتـ . وـعـلـىـ ذـكـ نـجـدـ أـنـ مـاـ عـدـنـاـ مـنـ مـكـلاتـ الـاسـتـقـلـالـ اـنـفـرـديـ عـنـ الـفـلاحـ ، تـنـقـصـهـ النـاحـيـةـ الـنـقـافـيـةـ الـتـيـ عـكـسـهـ مـنـ أـنـ يـصـحـ ذـاـ أـنـ عـلـىـ تـكـيـيفـ حـالـاتـ الـكـائـنـ الـاجـمـاعـيـ . وـلـكـنـ هـذـاـ اـسـتـقـلـالـ مـهـماـ كـانـ فـيـهـ مـخـرـوبـ الـقـصـ فـهـوـ اـسـتـقـلـالـ عـلـىـ كـلـ حـالـ . أـمـاـ الـمـلـعـمـ الـمـتـعـلـلـ خـاتـمـهـ تـنـاقـضـ هـذـهـ الـطـالـ . فـانـ تعـلـيمـهـ لـمـ يـعـكـسـهـ مـنـ أـنـ يـكـوـنـ مـسـتـقـلـاـ مـنـ نـاحـيـةـ الـتـقـانـةـ ، فـيـ حـيـزـ أـنـ شـائـهـ وـعـيـطـهـ قـدـ مـلـيـاهـ نـاحـيـةـ اـسـتـقـلـالـ الـأـخـرىـ .

\*\*\*

أـمـاـ الـأـسـلـوبـ الـذـيـ يـجـبـ أـنـ يـسـعـيـ فـيـ الـتـعـلـيمـ حـتـىـ يـكـوـنـ أـدـاـةـ مـاـلـةـ لـتـخـرـيجـ رـجـالـ مـسـتـقـلـينـ ذـوـيـ أـنـ وـتـكـيـيفـ حـالـاتـ الـكـائـنـ الـاجـمـاعـيـ ، فـتـنـدرـلـهـ مـفـحـاتـ خـاصـةـ . وـمـنـقـعـرـ

كلامنا الآن على المخاطر التي يتعرض لها كائننا الاجتماعي من وجود فالحين استقلوا حيوانًا ومتعبين فقدوا كل ضروب الاستقلال .

\*\*\*

على الرغم من أن الأخطار التي يتعرض لها مجتمعنا تناصرت عليه كل هذه الظواهر الكثيرة المتعددة ، فإن أعظم هذه الأخطار وأشدّها أثراً في مستقبله ، إنما حدث بما يدعوه «الاجتماعيون » «التطفل الاجتماعي » . والتطفل الاجتماعي حالة ترهق فيها طبقات غير مأمة طبقات مأمة بطلوبات حيواتها ، وهذا التطفل ظاهر عديمة أخلاقها أن تكون الطبقة الملعونة هي بذاتها صاحبة السلطة العليا في المجتمع ، كما حدث في أوروبا في خلال الفرون الوسطى ، وكما هي الحال في كثير من ممالك الشرق في حاته الماضية . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال .

التطفل حالة طبيعية لا سبيل إلى نكرانها . فهناك حيوانات تتغذى على نباتات ، ونباتات تتغذى على حيوانات ، وقد يتضليل حيوان على حيوان أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشمل كل فواعي العالم الحي ، وتحتكم في الكثير من مظاهره الجلي . غير أن نظرية واحدة في هذه الحقيقة الفسيفسائية ، تدرك على أن التعامل حينما كان ، وأيّاً كانت ومساره ومظاهره ، لن ينتهي إلا مذمماً في الحياة ، ولن يرسد إلا فساداً ، ولن يؤدي إلا إلى إرهاق شامل في القرى الحirية ، تختلف درجاته ومظاهره وتتأثره باختلاف الظروف ، وفتداً يتطبع كل طبيعي أن يُحتمل في تلك الظروف التي يجعل فيها فعل التطفل في حالم الأحياء . فإن ذلك من الأشياء التي يستحق على العالم تعريفه بمظاهرها عامة وخاصة ، وفعلاً كل متنفس في مختلف الظروف ، على كل متنفس عليه في مثابن الحالات . وإنما يتطبع الأحيائي أن يدرس ظواهر العفن في حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر المتنفس في بنية الحي . المتنفس عليه ، مخصوصاً في كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما ، وتأثير دورة حياة المتنفس في حاليه .

ونحن يندو العالم الأحيائي هذه الحال عيّنا ، فليس في مسعاه أن يحصي أوجه التبدل الاجتماعي في مجتمع بيه . ولا أن يدرس الحالات دراسة توفر على دقتها وتدرايتها التي

تكتل له الوصول إلى تأثير مفطوع بصفتها فطعاً تاماً . والعالم الاجتماعي أضعف وسائل من العالم الطبيعي . فلن هذا بين جدران معهله ، يستتبع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر في حين أن زميله الاجتماعي ، إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة ، تحديداً تحمل الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أولاً ثمانياً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعي وبين تبيّن الحالات الكافية التي يتتجدد درس مظاهر انتقال الاجتماعي وسيلة إلى آخرها .

من الحالات الكابة في التعامل الاجتماعي ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً في الجماعات  
للمدينة ملأة ، وفي مصر خاصة ، تلطّغ في ذوي الكنفاس ، وإن ثئت نقل المتعطلين ،  
على موارد ما تنتجه الأيدي العامة من ناحية ، وعلى انتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من  
غير أن يكون ظولاً، المستعينين أي ضلع في تكون المورد أو في الاتجاه . ومن هنا تحدث  
حالة من حالات التعامل الاجتماعي تستند فيها أيدٍ متعللة غرارات الجبود التي ثبت لها أيدٍ  
طلعة ، غير أن تعال الأيدي العامة من غرارات جبودها ما يكفي لحفظ بحروتها أو قدرتها  
على العمل والاتجاه . فلن من شأن التعامل أن يجتهد في استغلال حادث بكل صور الاستغلال  
وإذ يبلغ من الاتجاه بحروته جهد ما يستدعيه ، وكما قلت قوى المقاومة في الحاضن ،  
ازداد التعامل شردة وبأساً ، حتى ينهي الأمر عن يسبه الاجتماعيون « بالنكُس  
الاجتماعي »<sup>(11)</sup> وهي حالة تساوى فيما يطلقون عليه لا من حيث اشكفيات العدالة ،  
ول لكن من حيث المجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى الماءرة ،  
ولا يذكر أحد أدا في عصمتنا بهذه الثاذرة الخبيثة . فالآري العامة لا تعال من متوج  
عملها ما يكفي للاحتفاظ بحروتها ، ولأنه ينتفعه تعدد غرارات تلك الجبود . وعلم ما  
يترتب على ذلك عند اتفاق

ومن تلك الحالات غير اريف والعيش في المدح وفقد بعث هذه القاهرة كثير من الكتاب منه . ادمون ديلولام الترسني والاسناد ابراهيم مريان الانجليزي في بحث متقدمة على جواهير الحالات التي تثار في درسا وامتحانا ، ودعتموا بعض الشيء على

حالات نادـت في غيرها من البلدان في أورـيا . ولا جـرم أنـ هذه الحالـات تـشـاهـد ، فالأسـباب التي تـسـعـوـ الـدرـسيـ أوـ الـإنـجـليـزيـ إـلـىـ بـحـرـ الـرـيفـ وـالـأـفـاقـةـ فـيـ الـمـدـنـ ، أوـ بـالـأـخـرىـ حـبـ التـحـضـرـ (يعـنىـ الـعـيـشـ فـيـ الـحـواـفـرـ) تـكـادـ تـكـونـ نفسـ الـأـسـبـابـ الـيـ تـحـمـلـ الـمـصـرـيـ عـلـىـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ . غـيرـ أـنـ التـتـسـاحـ غـيـرـ مـعـقـلـ باـخـلـافـ الـبـلـادـ ، عـلـىـ مـقـضـىـ ماـ فـيـ كـلـ شـعـبـ مـنـ الـاستـهـادـ وـالـمـفـاتـ ، وـفـيـ الـأـكـثـرـ عـلـىـ مـقـضـىـ الـقـاـفـةـ الـتـقـلـيدـيـ الـيـ يـعـصـمـ بـهـاـ كـلـ شـعـبـ مـنـ الشـعـوبـ .

ولـسـوـفـ نـسـيـنـ عـنـ فـكـرـتـناـ فـيـ أـنـ الـقـاـفـةـ الـتـقـلـيدـيـ فـيـ الـكـيـانـ الـاجـمـاعـيـ لـكـرـ أـمـةـ مـنـ الـأـمـ . وـنـكـنـيـ أـنـ بـأـنـ تـقـولـ بـأـنـ شـبـاـ كـاـلـشـبـ الـمـصـرـيـ ، الـزـرـاعـةـ قـاـفـةـ الـتـقـلـيدـيـ مـنـذـ أـبـدـ عـصـورـ الـتـارـيخـ ، لـأـبـدـ مـنـ أـنـ يـأـثـرـ بـزـيـادـةـ الـمـيلـ إـلـىـ التـحـضـرـ ؛ تـأـثـرـاـ عـظـيـزاـ لـيـحـمـهـ شـبـ آخـرـ قـاـفـةـ الـتـقـلـيدـيـ غـيـرـ زـرـاعـيـ . بلـ عـلـىـ الـمـكـسـ مـنـ ذـلـكـ ، أـعـتـقـدـ أـنـ الشـعـوبـ الـيـ تـكـونـ قـاـفـةـ الـتـقـلـيدـيـ صـنـاعـيـ أـوـ تـجـارـيـ ، يـحـبـ أـنـ تـحـمـيـ مـحـيـةـ التـحـضـرـ حـيـاةـ لـصـالـحـهاـ . أـمـاـ التـحـضـرـ شـبـ قـاـفـةـ الـتـقـلـيدـيـ الـزـرـاعـيـ ، فـكـ هـيـ الطـامـةـ الـكـبـرـيـ عـلـىـ كـيـانـ الـاجـمـاعـيـ ، وـكـلـ هـيـ الـفـرـقـةـ الـمـظـيـمةـ إـلـىـ أـبـعـدـ دـوـرـ الـتـطـلـلـ الـاجـمـاعـيـ .

وـنـعـنـ لـمـ عـلـمـ عـلـمـ أـقـرـأـ بـأـنـ مـدـنـ الـمـصـرـيـ مـدـنـ غـيـرـ صـنـاعـيـ بـالـغـىـ المـفـهـومـ مـنـ ذـلـكـ فـيـ أـورـياـ . بلـ أـعـتـقـدـ ، وـأـذـنـ أـنـيـ اـعـتـقـدـ بـحـقـ ، أـنـ مـدـنـنـ لـيـسـ إـلـاـ أـصـرـافـاـ تـسـهـلـ فـيـهاـ مـنـتـجـاتـ الـبـلـدـ ، وـرـدـهـ الـجـبـيـةـ وـجـدـهـاـ كـافـيـةـ لـأـنـ تـظـهـرـنـ عـلـىـ أـنـ مـيـلـاـ إـلـىـ التـحـضـرـ ، مـعـ التـمـطـلـ عـلـىـ الـعـلـىـ ، وـرـدـهـ الـمـنـتـجـ وـرـدـهـ الـسـوقـ الـمـسـهـلـكـ ، لـأـنـ التـمـطـلـ فـيـ الـوـاقـعـ عـبـرـ عـلـىـ الـجـمعـ ، ذـلـكـ بـأـنـهـ ثـرـدـ مـسـتـقـدـةـ لـأـقـوـةـ مـنـ تـحـيـةـ ، وـلـأـنـ الـخـاجـاتـ الـيـ يـتـسـدـدـهاـ لـأـيـنـيـ مـاـقـدـرـهـاـ خـلـقـ جـمـعـيـةـ مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ . وـبـذـلـكـ يـصـبـحـ التـمـطـلـ مـيـلـاـ عـلـىـ نـاطـفـةـ الـيـ يـسـكـنـهـ ، وـبـهـنـ مـنـ الـمـفـاهـيمـ الـمـتـسـتـجـةـ مـاـ . وـهـنـاـ يـتـعـاـفـتـ لـصـلـهـ ، إـذـ يـصـبـحـ مـنـظـلـاـ بـأـشـارـيـنـ لـأـوزـانـهـ يـنـسـ أـنـ الـمـدـنـ وـيـسـارـكـهـ أـرـزـاقـهـ مـنـ غـيـرـ اـتـاحـ مـنـ نـاحـيـةـ ، وـالـنـأـيـ أـنـ يـرهـنـ الـعـنـاسـ الـعـالـمـةـ فـيـ الـرـيفـ بـأـنـ يـسـهـلـ وـلـاـ يـنـتـجـ ، وـبـالـأـخـرىـ بـأـنـ يـخـدـ وـلـاـ يـعـطـيـ .

وـمـنـ ذـلـكـ الـحـالـاتـ مـاـ يـسـمـيـ الـاجـمـاعـيـوـنـ «ـ الـجـمـعـ الـاجـمـاعـيـ »ـ — (Merrow)ـ ، وـلـاـ اـرـيدـهـ أـنـ يـكـرـرـ فـيـ عـدـدـ «ـ الـجـمـعـ الـاجـمـاعـيـ »ـ ، وـلـاـ أـنـ أـنـاشـ فـيـ مـعـلـفـ الـعـارـيفـ

أي وضعها المؤذنون الذين أتيح لهم الاطلاع على مؤلفاتهم ، وإنما أنتصر على ذكر حالات يستطيع التاريـء أن يدرك منها ، مطبـة على حالات قوم بين فهـرـاـتـها ، ما يـقـدـدـ بالـجـمـعـ الـاجـمـاعـيـ .

وعندـيـ أنـ أـخـبـ ماـ يـؤـدـيـ إـلـيـ الجـمـعـ الـاجـمـاعـيـ منـ تـكـيـفـ عـقـلـيـ طـقـاتـ خـاصـةـ فيـ مجـتمـعـ ماـ يـعـقـدـ تـصـبـاتهـ ، إـنـماـ يـحـصـرـ فيـ أـنـ تـقـطـلـ جـمـاعـاتـ ، لـأـفـرـادـ ، عـلـىـ جـسـمـ الـكـائـنـ الـاجـمـاعـيـ وـقـدـ تـلـبـسـ الـجـمـاعـاتـ الـتـيـ تـقـتـلـهاـ صـورـاـ مـخـلـصـةـ ، فـنـ الـجـمـاتـ تـجـارـيـةـ إـلـىـ الـجـمـاتـ مـنـاعـيـةـ ، إـنـ جـمـعـاتـ عـدـيـةـ أوـ اـقـتصـادـيـةـ أوـ سـيـاسـيـةـ تـتـحـذـ التـأـمـيرـ عـلـىـ عـقـلـيـ الـجـاهـيـرـ بـعـتـافـ الـوـسـائـلـ ، طـرـيقـاـ تـدـلـكـهـ إـلـىـ غـرـضاـ ، لـذـيـ رـوـيـ إـلـيـهـ ، وـالـذـيـ يـجـعـلـهـ جـدـوـةـ بـأـنـ تـعـتـمـ بـأـنـهاـ جـمـاعـاتـ مـعـاـبـةـ بـحـنـونـ الـجـمـعـ الـاجـمـاعـيـ . أـمـاـ ذـلـكـ الفـرـضـ فـيـحـصـرـ فيـ أـنـ تـنـالـ مـنـ الـجـمـعـةـ أـنـصـيـ ماـ يـعـكـنـ أـنـ تـنـلـيـهـ مـنـ الرـعـيـةـ أـوـ التـغـوـذـ أـوـ الـسـلـطةـ أـوـ الـجـاهـ أـوـ الـحـكـمـ ، بـأـقـلـ جـهـدـ مـكـنـ أـنـ يـذـلـ ، أـوـ لـتـغـيـبـ يـضـحـيـ بـهـاـ مـنـ نـاحـيـهـ .

وـفـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـاتـ تـضـاعـفـ خـبـاثـ التـقـلـ الـاجـمـاعـيـ ، بـأـنـ يـعـدـ «ـ اـنـفـلـاـ مـرـكـبـاـ »ـ لـانـفـلـاـ بـيـلـاـ . وـنـعـيـ بـالـتـقـلـ «ـ الـمـرـكـبـ »ـ أـنـ هـذـهـ الـجـمـاعـاتـ الـمـعـاـبـةـ بـحـنـونـ الـجـمـعـ الـاجـمـاعـيـ ، يـكـوـنـ فـيـهـاـ عـنـصـرـ خـاصـ يـعـيـشـ مـتـقـلـاـ عـلـىـ جـسـمـ الـجـمـاعـةـ نـسـمـاـ . ذـلـكـ الـعـنـصـرـ هوـ عـنـصـرـ اـنـهـاـزـيـ لـنـ تـسـلـمـ مـنـ جـمـاعـةـ أـصـيـتـ بـذـلـكـ المـرـضـ الـجـيـبـ . فـكـاـ أـنـ الـجـمـاعـةـ تـقـلـ عـلـىـ جـسـمـ الـجـمـعـ ، يـتـقـلـ ذـلـكـ الـعـنـصـرـ الـذـيـ هـوـ «ـ وـاجـبـ الـوـجـودـ »ـ فـيـهـاـ عـاـيـقـنـيـ تـكـوـنـهـاـ النـضـيـ ، عـلـىـ بـتـقـيـيـةـ عـنـاصـرـهـ .

وـتـبـرـيـرـ قـافـةـ الـتـقـلـينـ ، وـلـكـنـ إـلـىـ الـبـوارـ الـصـرفـ . مـثـلـاـ كـذـلـ حـيـانـ زـرـعـتـ عـلـىـ مـلـوـةـ هـلامـيـةـ فـيـ زـجاـجـةـ اـخـتـيـارـ فـيـ مـعـلـمـ الـعـامـلـ ، فـإـنـاـ تـكـافـرـ نـمـ تـكـافـرـ ، حـتـىـ إـذـاـ مـلـءـ فـرـاغـ اـرـجـاجـةـ وـاسـتعـالـ الـمـادـةـ الـلـامـاـةـ أـجـسـامـ حـيـةـ ، اـتـكـسـ الـأـمـرـ ، وـبـدـأـ الـأـحـبـاءـ تـنـعـدـ إـلـىـ الـمـلـاـكـ الـعـنـوـمـ .

هـذـهـ الـلـامـاتـ مـوجـزـةـ فـيـ حـالـاتـ شـاهـدـهـاـ قـائـمةـ مـنـ حـوـلـنـاـ . فـيـنـ يـكـنـ أـنـ تـعـدـ الـتـعـلـيمـ أـدـاءـ إـمـالـاحـ تـقـيـهـاـ بـعـضـ مـاـ يـكـتـفـنـاـ مـنـ شـرـورـ وـخـاتـمـ ؟ـ وـذـلـكـ إـنـهـ يـعـدـ أـنـ يـؤـدـيـ إـلـىـ الـأـجيـالـ الـقـيـلةـ وـسـالـةـ إـمـالـاحـ عـلـىـ يـرـوعـ عـرـ كـهـاـمـهـ بـعـدـ ؟ـ تـرـىـ دـمـ مـنـ مـتـابـ ؟ـ ظـلـ

أنا لست بطيئ لأنني بـالإيجاب ، وأنـقول موقـنـا «نعم» ، لوـأنـفيـنا رـجـالـاـ ، وـفـيـنا رـجـولةـ .

أـرـىـ وـاحـدـاـ عـلـىـ فـيـلـ المـفـيـ وـجـاـ سـوـفـ أـمـ وـقـ الـكـلـامـ فـيـهـ ، أـنـ أـبـدـاـ باـسـتـدـارـاـكـ لـابـدـ مـنـهـ . فـقـدـ يـبـبـ عـلـىـ بـعـضـ مـنـ الـفـكـرـيـنـ أـنـكـرـ دـيـاـ كـتـبـتـ نـاحـيـةـ ذاتـ شـائـعـةـ منـ نـوـاحـيـ الـحـيـاةـ فـيـ مـصـرـ لـمـ أـعـرـهـ اـنـتـهاـتـاـ . وـقـدـ يـعـتـدـ هـؤـلـاءـ أـنـ تـلـكـ النـاحـيـةـ خـطـرـاـ فـيـ صـيـغـةـ الـحـالـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ مـصـرـ بـصـيـغـةـ خـاصـةـ . وـقـدـ يـشـيرـونـ إـلـىـ الـأـزـهـرـ . وـلـوـأـنـهمـ أـشـارـواـ إـلـىـ غـيـرـ الـأـزـهـرـ إـذـنـ لـكـانـ لـمـ يـعـبـبـوـنـ بـهـ عـلـىـ مـنـ الـوزـنـ ، قـدـ غـيرـ يـسـيـرـ . أـمـاـ وـاـمـ قدـ يـعـنـوـنـ الـأـزـهـرـ ، وـفـقـولـونـ بـأـنـهـ مـسـكـرـ ثـالـثـ مـنـ مـعـسـكـرـاتـ الـعـوـاـمـ الـمـلـوـءـةـ فـيـ الـحـالـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ مـصـرـ ، يـبـنـيـ لـنـاـ أـنـ لـخـبـ حـابـهـ ، وـأـنـ تـنـاـوـلـهـ بـاـتـحـالـيـلـ وـالتـقـدـ ، وـأـنـ زـنـ أـرـهـ فـيـ تـكـيـفـ الـحـالـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ ، فـأـكـبـرـ ظـلـيـ أـنـ أـلـمـ بـرـأـيـمـ مـعـهـ سـافـرـاـ فـيـ سـيـلـ اـشـاهـةـ مـنـ يـيـنـاتـ . ذـلـكـ بـأـنـ يـيـنـةـ وـلـاحـدـةـ تـكـنـيـ لـهـمـ جـمـيعـ مـاـ يـقـيمـونـ مـنـ دـلـائـلـ . فـاـنـ الـقـوىـ الـتـيـ تـؤـرـ فـيـ حـالـةـ اـجـتمـاعـيـةـ بـعـيـنـهاـ : إـنـاـ هـيـ الـقـوىـ الـمـوجـةـ لـاـ الـقـوىـ السـالـةـ ، وـالـأـزـهـرـ ، وـلـاـ شـهـةـ ، قـوـةـ سـالـةـ ، قـوـةـ اـنـجـهـتـ يـكـزـ مـاـ فـيـهـ مـنـ عـوـاـمـ الـحـيـاةـ إـلـىـ الـأـخـرـوـيـاتـ لـاـ إـلـىـ الـدـنـيـوـاتـ . وـأـنـ تـرـىـ فـيـ كـلـ الـأـطـوارـ الـتـيـ تـقـلـبـ فـيـهـ الـأـمـمـ مـنـ بـدـاءـ الـعـصـرـ الـاتـنـاعـيـ لـلـهـدـيـتـ ، أـنـ الـقـوىـ السـالـةـ فـيـهـاـ اـنـحـصـرـتـ فـيـ ثـيـنـ : الـأـوـلـيـ رـجـالـ الـدـينـ ، وـالـثـانـيـ رـجـالـ الـحـكـومـةـ ، وـهـاـ بـعـدـ فـيـهـاـ مـنـ صـفـاتـ الـسـلـ وـالـمـاـذـةـ ، كـاتـبـاـ فـيـ كـلـ الـحـالـاتـ درـيـثـ طـالـماـ سـكـتـ حـسـنـ الـمـجـتمـعـ مـنـ كـثـيرـ مـنـ الـهـرـوـاتـ اـمـبـيـنـةـ وـالـاتـقـلـاـتـ الـخـيـرـةـ الـتـيـ يـجـمـعـ بـهـاـ اـنـعـالـةـ مـنـ الـمـصـلـحـينـ أـوـ الـبـاسـيـنـ ، وـإـنـ لـهـاـ الـمـوـضـوـعـ ظـرـفـاـ آـخـرـ غـيرـ هـذـاـ الـفـرـقـ قـدـ يـتـاحـ لـنـاـ فـيـهـ أـنـ بـعـدـهـ بـعـدـاـ أـوـقـ .

فرـغـناـ مـنـ الـكـلـامـ فـيـ التـعـقـلـ الـاحـقـانيـ وـأـحـعـنـاـ بـعـضـ غـوـافـهـ ، وـأـبـتـاـ أـنـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ تـسـعـ فـيـ عـنـاقـيـ مـتـمـسـكـاـ بـنـحـرـ السـوسـ الـحـبـ . وـلـأـنـ تـقـنـ إـلـىـ ظـاهـرـةـ الـحـمـاـيـةـ أـخـرىـ ، لـاـ تـقـلـ عـنـ ظـاهـرـةـ اـنـتـنـ الـاحـقـانيـ فـعـلاـ وـأـنـراـ . تـلـكـ مـاـ أـنـجـهـ ظـاهـرـةـ الـرـجـمـةـ وـلـاـ أـنـجـهـ بـهـارـجـمـةـ فـكـرـيـةـ أـوـ بـاسـيـةـ أـوـ تـيـرـ ذـكـ : ذـكـ مـاـ اـكـاتـ مـنـ هـذـاـ اـنـتـابـعـ طـهـانـ الـحـسـنـ . وـلـمـ أـخـرـ مـاـ كـبـرـ اـذـمـ . ذـكـ . فـيـ اـنـقـدـ اـذـ بـعـدـ غـوـافـ الـرـجـمـةـ ، كـلـ حـمـةـ .

الفكـرـية أو السـيـاسـية ، وما يـمـرـي بـهـاـ ، تـحـمـلـ في اـضـاعـيـةـهاـ أـسـبـابـاـ تـولـدـ فـوـىـ . اوـقـائـيـةـ  
وـأـنـماـ أـعـنىـ بـهـاـ الرـجـمـيـةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ ، وـأـكـبـرـ ظـواـهـرـهاـ عـزـوـفـنـاـ عنـ التـفـقـهـ بـعـقـمـهـ  
، ثـقـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ .

وـلـمـرـيـةـ فيـ أـنـاـ نـعـتـاجـ إـلـىـ تـعـرـيفـ هـذـهـ النـظـرـةـ الـجـدـيـدـةـ الـتـيـ نـسـوـتـهاـ الـيـوـمـ ، لـتـكـونـ  
أـسـاسـاـ فيـ عـلـاجـ حـالـاتـ اـجـمـاعـيـةـ بـعـيـهـاـ . بـلـ تـقـولـ إـنـ بـعـدـنـاـ عـنـ دـرـسـ هـذـهـ النـظـرـةـ ، حـسـبـاـ  
كـانـ مـنـ الـأـسـابـ اـرـئـيـةـ الـتـيـ هـيـأـتـ المـقـضـيـاتـ لـأـوـلـيـةـ لـتـشـعـرـ بـأـنـاـ قـدـ أـقـعـنـاـ بـعـنـ أـلـزـامـ  
اجـمـاعـيـةـ رـغـبـاـ أـصـبـحـتـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ بـالـغـةـ مـتـهـيـ الـخـطـورـةـ .

أـمـاـ مـاـ لـعـنـ «ـ بـالـثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ »ـ فـصـوـعـةـ الـحـالـاتـ وـالـمـلـاـبـاتـ الـتـيـ يـنـشـأـ شـعـبـ مـنـ  
الـشـعـوبـ مـكـتـفـاـ بـاـ مـنـ حـيـثـ طـبـيـعـةـ الـأـرـضـ وـالـأـقـلـيمـ ، وـمـاـ يـعـاـبـ ذـاكـ مـنـ الـمـكـوفـ عـلـىـ فـنـ  
خـاصـ مـنـ فـنـوـنـ الـحـيـاةـ . وـعـمـىـ أـوـسـعـ تـدـلـ الـثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ عـلـىـ الـعـاصـرـ الـتـيـ وـرـثـاـهـمـ بـمـنـ  
الـشـعـوبـ عـلـىـ مـدـىـ الـأـزـمـانـ ، مـنـ طـرـيقـ اـتـأـرـ الطـبـيـعـيـ بـالـبـيـةـ وـالـمـعـيـطـ ، كـاـ تـدـلـ عـلـىـ جـمـيلـ ماـ  
ثـبـتـ فـيـ عـقـلـيـتـهـ بـالـقـلـعـ الـلـالـيـ مـنـ مـادـاتـ وـأـسـاطـيـرـ وـعـلـومـ وـآدـابـ ، ثـبـتـ بـنـشـأـتـهـ فـيـ مـرـيـاهـ  
الـأـصـيلـ ، وـعـلـىـ الـجـلـةـ تـقـولـ إـنـ الـثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ لـشـعـبـ مـنـ الـشـعـوبـ ، إـنـاـ هـيـ فـيـ الـوـافـعـ جـمـعـ  
مـاـ يـرـثـ مـنـ حـفـاتـ حـيـوـيـةـ وـمـعـقـدـاتـ وـفـنـوـنـ مـنـ أـسـلـافـ الـأـوـلـيـاـ .

وـمـاـ كـانـ شـعـبـ مـنـ الـشـعـوبـ أـنـ يـحـاـوـلـ الـأـفـلـاتـ مـنـ أـنـطـارـ ثـقـافـتـهـ التـقـلـيدـيـةـ الـأـ وـلـهـ  
بـالـفـشـلـ الـحـقـقـ وـبـاـ يـحـاـوـلـ . ذـاكـ بـأـنـ الـثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ ، هـيـ الـأـصـلـ الـتـيـ يـرـتـكـزـ عـلـيـهـ  
الـطـبـعـ الـلـائـلـ فـيـ أـخـلـاقـ الـأـمـرـ ، وـطـرـقـ سـلـوكـهاـ فـيـ الـجـمـاـةـ . وـمـاـ قـوـكـاـ فـيـ ثـقـافـةـ يـرـتـشـفـهاـ  
الـطـفـلـ بـعـمـ ماـ يـرـشـفـ مـنـ لـبـنـ أـمـهـ وـهـرـوـضـيـعـ ، وـيـشـبـ مـكـتـفـاـ بـهـاـ إـذـاـ يـفـعـ ، وـيـنـقـ  
بـفـنـونـهاـ إـذـاـ قـتـىـ ، وـيـنـرمـ بـهـاـ إـذـاـ أـكـتمـ ، وـيـعـوـتـ وـهـيـ مـرـتـسـيـةـ فـيـ تـدـورـاتـهـ جـمـيعـاـ إـذـاـ هـرـمـ ،  
لـأـمـرـيـةـ فـيـ أـنـهـاـ تـصـبـحـ جـزـءـاـ مـنـ طـبـعـهـ ، وـرـكـنـاـ مـنـ أـرـكـانـ نـفـسـهـ ، بـلـ إـنـ شـتـقـلـ إـنـهـاـ  
الـرـكـنـ الـأـعـيـلـ فـيـ حـيـانـهـ النـبـيـةـ وـالـعـنـيـةـ ، وـمـاـ عـدـاـهـ نـوـالـعـ طـاـ وـلـوـاحـقـ بـهـاـ . وـأـنـماـ تـقـاتـرـ  
الـتـوـافـعـ بـالـأـصـلـ ، وـتـكـيـفـ اـتـرـاحـقـ بـالـأـرـوـمـةـ . فـاـ مـنـ ثـقـافـةـ حـدـيـثـةـ نـضـافـ إـلـىـ ثـقـافـةـ تـقـلـيدـيـةـ  
الـأـ وـتـكـيـفـ الدـخـيلـ تـكـيـفـاـ بـتـابـعـ ذـيـهـ مـاـ يـعـتـاجـ إـلـيـهـ الـأـعـيـلـ مـنـ مـلـاـبـاتـ . مـذـ ذـكـرـ أـنـ  
الـطـبـعـ نـلـصـريـ ، وـإـنـ شـتـقـلـ قـلـ «ـ سـلـمـرـيـةـ »ـ ، إـنـ تـسـعـ مـنـهـ الـأـورـيـةـ شـيـئـاـ إـنـ هـيـ سـعـكـتـ

بها، وأنما تكيف «الأوربية» بعوامل المصرية، إنها تناست في ميدان واحد. وليس في ذلك أي خطر على كياننا التقليدي. ولكن الخطر كل الخطر أن نضعف من مصرتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية، فتكن في تضاعيف النسخ ولا تظهر إلا ضعيفة منهوبة، وقوية من «الأوربية» فتأخذها غير مكيفة بمتضيقات ثقافتنا التقليدية. ناهيك بأننا لسنا أوربيين بالدم والتقاليد، فلا تستطيع أن تفهم من روح الأوربية على ما يفهمها الأوربي إلا ظواهرها الكاذبة، فتصبح وقد قمنا بمصرتنا من ناحية، ولتحتها عقولنا بالأوربية من جهة أخرى. وما كل هذا إلا طلاه خادع، ومن ورائه تختفي الحقيقة التي يجب علينا جميعاً أن نقطن إليها، وأن ندرسها أو فر الدرس، وأن نكتب على قلوبهم روحها أقوى فَهُمْ، حتى تستطيع أن تهَبَّي للأجيال الآتية سبيل التكَيُّف بروح العصر، تَكَبُّلًا مطابقاً لثقافتنا التقليدية، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبتت من حالتنا الحاضرة، وفيما تقدم من شرح، محل ما نعني «بالجمعية الاجتماعية»؛ فهي قمع لمتضيقات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق الفصل بين هذه الثقافة الموروثة، وفنون الحياة في العصر الحديث تتصنّع ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتـ المعيشة أولاً. فإذا استكملت هذه الثقافة الأسس المعيشية التي تعين الشعوب علىبقاء، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر في مزاج الشعب، تهابه أن تكشف فيه أكباء ثلاثة هي في الواقع ظواهر هذه الثقافةـ الدين واللغة والفنـ، وفي هذه الأكباء جماع ما يجعل لنظرتك في الأم من المحسائص الأخرى، كالأخلاق وال الحالات النفسية إلى غير ذلك.

ولا بدّ لنا من أن نضرب بعض الأمثل لتفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظريةـ فالبداوة مثلاًـ، ثقافة تقليدية لكل القبائل التي تعيش مشتقةـ، وجميع ما يحصل بالبداوة من الأسس التي تقوم عليها ناحية من نواحي الحياة في أهل البدوـ. والبداوة لأهل البدايةـ بداية الحياةـ لأن فيها تحمل روح القبيلةـ التي بها تختفي الحمية بيقاهاـ، ونصورـ كيانهاـ، ومن مجموع التصورات والإدراكاتـ التي تحمل لأهل البدايةـ، تلكـ الفكرة الدینيةـ، ثم تنشأ اللغةـ، ثم ينشأـ الدينـ، ومن بعد ذلك تتحولـ الأخلاقـ، فتأخذـ حالاتـ خاصةـ، ومن ثم تكتونـ قانون المعرفـ البدائيـ، وهلمـ جرـاًـ، وهلـ من المستطاعـ مثلاًـ أن تفتـ جمـةـ

طبعتها البداوة عن كل ما ورثه على مدى الأجيال؛ وتلخ عن كل ما انتقل اليها عن أسلادها الأقدمين ، قلبـس من الأخـلـق ثـورـاً جـديـداً ، وتبـدـلـ من التـصـورـات والأـفـكارـ والأـخـيـةـ والـعقـائـدـ والـأـمـةـ والـفنـ وـغـيرـهاـ ، بـغـاـلاـ عـلـاقـةـ لـهـ بـشـفـاقـهاـ التقـلـيدـيـةـ ، ثـمـ تـسـطـيعـ بعدـ ذـكـرـ أـنـ تـحـفـظـ بـكـيـانـهاـ الأـصـيلـ ، مـنـ غـيرـ أـنـ يـزـرـ ذـكـرـ التـغـيـرـ الطـارـيـ ، أـعـماـقـ وجـرـدـهاـ هـرـاـ غـيـرـاـ شـدـيدـاـ ؟

كـذـكـ المـالـ فـيـ أـمـةـ أـخـرـىـ ثـقـافـتهاـ التقـلـيدـيـةـ صـنـاعـيـةـ كـأـجـلـتـرـاـ أوـ فـرـسـاـ مـثـلـاـ . فـإـنـ أـفـكـاكـ أـمـةـ مـنـهـاـ عـنـ الـمـبـنـاءـ ، مـعـنـاهـ تـحـطـمـ رـوـحـهاـ الـمـرـوـثـ ، بـلـ وـلـكـلـ مـاـ تـقـومـ عـلـيـ حـيـاتـهاـ ، أـدـيـةـ أـوـ مـادـيـةـ ، مـنـ الـقـوـاعـدـ الـأـصـيـلـ فـيـ تـقـيمـهاـ وـغـرـأـزـهاـ . وـأـظـانـ أـنـ الـمـرـيـنـ لـاـ يـمـرـجـونـ عـنـ مـقـضـيـ هـذـهـ الـقـاعـدـةـ . فـإـنـ لـمـرـقـ ثـقـافـتهاـ التقـلـيدـيـةـ ، وـمـيـ ثـقـافـةـ الـرـاعـيـةـ الـيـ وـشـنـامـاـ بـحـكـمـ وـجـودـنـاـ عـلـيـ ضـفـافـ النـيـلـ . وـوـاجـبـنـاـ كـأـمـةـ رـشـيدـةـ أـنـ تـقـيمـ كـيـانـاـ أـصـلـاـ عـلـيـ أـسـاسـ هـذـهـ الـثـقـافـةـ الـمـرـوـثـةـ ، نـكـلـهـ بـعـقـضـيـاتـ مـاـ يـنـطـلـبـ هـذـاـ الـمـصـرـ مـنـ ضـرـوبـ الـثـقـافـاتـ الـأـخـرـىـ . أـمـاـ عـكـسـ هـذـهـ الـآـيـةـ ، وـذـكـرـ مـاـ تـنـتـجـهـ الـآنـ مـعـ الـأـمـفـ ، فـهـاـيـهاـ الـطـرـابـ الـعـاجـلـ وـالـدـمـارـ الشـامـلـ .

إـنـ مـاـ يـرـعـ مـنـ أـرـضـ فـيـ هـذـاـ الـوـاـدـيـ الـخـصـيـبـ فـيـ هـذـاـ الزـمـنـ ، جـزـءـ قـلـيلـ هـاـ يـعـكـنـ استـغـلـالـهـ ، وـلـكـنـ عـلـيـ فـكـهـ لـاـ يـمـتـلـلـ الـاستـغـلـالـ الـوـاـيـ ، وـلـهـ أـسـبـابـ يـطـولـ بـنـاـ شـرـحـهاـ ، وـإـنـاـ نـذـكـرـ ذـكـرـ لـتـنـولـ بـأـنـ كـلـ مـعـطـلـيـ هـذـاـ الـرـمـانـ . إـنـاـمـ مـتـعـلـمـونـ بـحـكـمـ الـثـقـافـةـ الـيـ تـلـقـرـهـاـ ، وـبـحـكـمـ الـظـرـوفـ الـتـعـلـيـمـيـةـ الـيـ شـأـواـ عـوـظـيـنـ بـهـاـ ، وـأـنـ بـلـادـاـ كـمـرـ تـسـتـبـعـ أـنـ تـعـضـدـ مـنـ السـكـانـ ضـعـفـ مـاـ تـعـضـدـ الـآنـ ، مـنـ الـعـجـيبـ أـنـ تـقـومـ فـيـهاـ مـشـكـلةـ تـعـرـفـ بـمـشـكـلةـ الـعـطـلـ وـأـنـ تـؤـلـفـ فـيـ سـبـبـلـاـ الـمـجـانـ وـتـعـرـرـ الـأـفـكـارـ ، وـتـسـهـلـ الـأـعـيـنـ الـيـالـيـ الـغـوـالـ ، وـلـنـصفـ الـأـرـضـ الـمـرـوـعـ فـيـهـاـ يـكـادـ يـكـونـ بـوـراـ . وـالـنـصـفـ الـمـرـوـعـ لـاـ يـعـنـ أـكـثـرـ مـنـ دـعـفـ مـاـ يـحـبـ أـذـيـلـ ، إـذـاـ أـحـسـ اـتـيـاـمـ عـلـيـهـ بـالـتـارـقـ الـعـلـيـ الـمـدـيـنـةـ ، وـأـكـبـرـ ذـيـ أـنـ السـبـ الـمـبـاـشرـ فـيـ قـيـامـ هـذـهـ الـخـالـ ، إـنـاـ يـرـجـعـ إـلـيـ أـنـاـنـيـاـنـاـ أـنـ ثـقـافـةـ تقـلـيدـيـةـ ، يـحـبـ أـنـ تـكـرـرـ أـسـاسـ الـمـيـاهـ فـيـ هـذـاـ الـوـاـدـيـ . وـأـنـ يـحـبـ أـنـ تـقـومـ سـبـاسـةـ الـتـعـلـيمـ أـوـلـ شـيـءـ ، عـلـىـ فـكـرـةـ الـانـصـالـ بـثـقـافـتـاـنـاـ الـقـلـيدـيـةـ .

لقد مضينا حتى الآن نقيم قراغـد التعليم عـلـى النـظـريـات ، لا عـلـى طـبـيعـة بلـادـنـا . هـذـا زـرـى أنـكـلـ التـائـعـ قد اجـهـتـ أـجـاهـاـ مـلـيـئـا ، لا أـجـاهـاـ إـيجـاهـاـ . وـعـكـسـ ذـاكـ ما نـطـلـبـ أنـيـكـونـ .

جـدـدـتـ في مصر مشـكلـة عـرـفـتـ مشـكلـة المـعـطـلـينـ منـ الـمـعـلـمـينـ ، وـماـ منـ سـبـبـ هـذـهـ المشـكـلةـ فـيـ الـوـاقـعـ إـلـاـ الـبـاسـةـ الـيـ جـرـىـ عـلـىـهاـ التـعـلـيمـ فـيـ بـلـادـنـاـ ، بـالـقـصـلـ بـيـنـ ثـقـافـةـ أـولـادـنـاـ الـيـ يـلـقـوـنـهـاـ بـيـنـ جـدـرـانـ الـمـدارـسـ ، وـثـقـافـةـ آـبـائـاـ الـأـقـدـمـينـ . وـحـدـثـ فـيـ مـصـرـ أـنـ اـنـشـقـتـ مـسـكـرـينـ لـاـ اـنـصـالـ لـاـ حـدـهـاـ بـالـآـخـرـ ، مـسـكـرـ الـمـعـلـمـينـ الـمـعـطـلـينـ الـدـيـ لـاـ اـنـصـالـ طـمـ بـثـقـافـةـ بـلـادـمـ الـتـقـلـيدـيـ ، وـمـسـكـرـ الـفـلاحـيـنـ الـدـيـ اـنـصـلـاـكـلـ الـاـنـصـالـ بـثـقـافـةـ بـلـادـمـ الـأـصـلـيـ . مـنـ غـيرـ أـنـ يـلـقـواـ بـشـيـءـ مـنـ مـقـضـيـاتـ الـحـيـاةـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـدـيثـ ، وـبـدـأـتـ فـيـ مـصـرـ رـوـحـ التـبـرـمـ بـالـحـيـاةـ الـمـصـرـيـةـ ، تـلـقـيـ مـنـهـاـ كـلـ يـوـمـ أـلـوـانـاـ مـاـ يـنـتـجـ عـلـىـ يـدـ الـمـعـلـمـينـ الـدـيـ إـذـلـمـ يـوزـعـهـمـ الـهـمـةـ إـلـىـ الـعـلـمـ ، فـقـدـ يـوزـعـهـمـ الـجـمـالـ الـذـيـ يـسـلـوـنـ فـيـ ، بـقـدرـ مـاـ هـيـأـمـ الـتـعـلـيمـ الـنـظـريـ الـذـيـ عـسـكـفـواـ عـلـيـهـ ، وـلـوـفـ تـقـدـمـ خـطـوـةـ بـعـدـ أـخـرـ مـهـادـيـنـ فـيـ الـعـلـمـ عـلـىـ زـيـادـةـ مـسـكـرـ الـمـعـطـلـينـ ، مـاـ دـمـنـاـ نـكـفـ عـلـىـ تـعـلـيمـ أـولـادـنـاـ عـلـىـ أـسـاسـ الـنـظـريـاتـ لـاـعـلـىـ أـسـاسـ الـعـلـمـيـاتـ ، وـمـاـ دـمـنـاـ خـرـجـ رـجـالـاـ لـاـ يـرـفـوـنـ عـنـ طـبـيعـةـ بـلـادـمـ هـيـئـاـ . وـاـنـ أـكـوـنـ مـاـلـيـاـ إـذـاـ قـلـتـ إـنـ إـنـ اـنـتـاجـ الـذـيـ يـتـخـرـجـ فـيـ كـلـيـةـ الـكـلـيـاتـ الـطـبـاـ ، لـيـسـ بـأـكـثـرـ عـلـمـ بـطـبـيعـةـ بـلـادـهـ مـنـ ذـمـيـهـ إـنـ الـمـدـيـنـةـ الـذـيـ يـخـرـجـ وـرـيـاهـ فـيـ مـعـهـ وـاحـدـ . فـذـلـمـ يـعـدـهـ طـرـيـقـاـ أـسـبـاحـ صـنـوـ بـطـالـةـ ، وـلـمـ يـعـتـرـ إـنـ الـفـلاحـ عـلـىـ إـنـ اـنـتـعـضـرـ بـشـيـءـ ، مـاـ اـمـتـازـ بـهـ جـدـوـدـهـ مـنـ أـهـلـ الـرـيفـ ، مـنـ قـدـرـةـ عـلـىـ الـاتـاجـ ، وـالـعـيشـ بـمـاـ تـغـلـبـ مـوـاعـدهـ مـنـ غـرـاتـ الـأـرـضـ .

وـتـخـبـيلـ إـلـيـ ، وـوـرـبـاـ كـنـتـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الـحـقـ فـيـهـ أـتـخـبـيلـ ، أـنـ الـلـهـ أـلـهـ الـحـسـنـهـ فـيـ سـيـاسـةـ الـتـعـلـيمـ فـيـ بـلـادـنـاـ ، غـيرـ قـاـصـرـ عـلـىـ قـعـدـ ثـقـافـةـ الـتـقـلـيدـيـ أـنـ يـكـوـنـ طـاـئـرـ فـيـ تـكـوـيـنـاـ الـعـقـلـيـ وـالـخـلـقـيـ ، بـلـ إـنـاـ أـنـتـهـاـ إـلـىـ دـهـ خـطـبـةـ أـخـرـيـ ، هـيـ أـنـاـ عـلـمـنـاـ دـاعـعـاـ عـلـىـ تـضـخـيمـ الـمـلـومـاتـ الـتـيـ يـتـلـقـاـهـ اـنـتـلـةـ فـيـ مـدـارـسـنـاـ الـثـانـوـرـيـ وـالـكـلـيـاتـ . فـقـدـ يـخـرـجـ الـتـعـلـيمـ إـلـىـ مـيدـانـ الـحـيـاةـ الـعـدـلـةـ بـعـدـ حـبـةـ أـمـضـاـهـاـ فـيـ جـوـهـ مـنـ الـنـظـريـاتـ الـصـرـفةـ ، وـهـوـ يـعـتـقـدـ أـنـ تـنـدـ مـنـ عـلـمـ بـالـحـيـاةـ ، ثـمـ لـاـ يـبـتـ أـنـ يـكـشـفـهـ الـحـقـ ، وـإـذـاـ يـرـىـ أـنـكـلـ مـاـ يـعـرـفـهـ مـنـ نـظـريـاتـ الـعـلـمـ

والأدب والفن ، لا يكفي رزق يومه ، ولا ينفي عن الأكابر على ناحية أخرى من نواحي الحياة العملية يدرِّسها لتكون له في الحياة ديناً على تحصيل الرزق . ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاعاً عظيماً في حياة شاب ملأه الأمل في الحياة ، والرهوناً تجمع في رأسه من المعلومات . وما من ريبة في أن هذه الصدمة المفجعة ، لها أثرها البالغ في سلوك الشاب وتفكيره ، ربما لازمه طوال حياته .

يمكث الشاب المصري بين جدران مهدته على ناحية نظرية من العلوم بعيدةٍ عن تجارب الحياة ، وتنقى أنواع المعارف المختلفة ، ويتفقى مكتباً عليها عمراً ، حتى ي تكون له نظرية خاصة ووجه يفكّره وقلبه اتجاهًا معيناً ، ويشعر في عقلته قياساً للأقباء ، وفتياً ينظر من طرقه في المقاائق . وعلى الجهة يتخيّل أنه ي تكون من طريق معارفه تكويناً يوّده لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي . فإذا استبيان له الواقع ، وواجه الحياة ما استجمع من معارف ، فلم أن للحياة طريقاً آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمره ، وأنّ لها قياساً آخر غير القيم التي يؤمن بها ، وأنّ لها نسماً خير فه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود ، انقلب على الماضي ثائراً ، ومن المستقبل يائساً ، وخليل إليه أن المجتمع جنّ عليه ، فسلبه سلاح العمل ، وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المقاومة الاجتماعية . وما بالك بهذا الشاب نفسه ، إذا هو أراد أن يرتد إلى مصراته فتصبح قلائله كأنّه أو جدّه ، وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية ، فيتضح له أن عليه التبصّر بلاده قبل ، وإن علاقته بطريقه الحياة فيها لا تواريه بالعدة الكافية لتعيشه في وسط مصرى أسيء ، الفلاح مده ، وال فلاحة لته ؟ من الأخطاء التي لا يبني لها أذن لغفل عن ورثها وزرثها صحيحاً ، إن تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صوراً من الأخلاق ، وفتوناً من السلوك ، ومذاهب من الفلسفة النسنية ، تختلط في عقولنا اختلاطاً عظيماً ، حتى ت تكون منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المعايير الظلية والفركية التي يؤمن بها اخلاق العادج فإن عصور الظلم والاستبداد التي على فلاح مصر في خلاطها الآرين ، وتوازي الدول في الحكم على ضياف التبل ، قد طبعت الخلق المصري بطبع خاص ، وصيغته بصيغة خاصة ، وتحبّ أن يعني بدورها أولى الدرس المصري المتعلم ، وأن يكتب على تفهمها كل الأكابر ، قبل أن يظن أنّه قادر على

أن يعيش ذلك النلاح المحن الجاهل ، وأن يعلم ، في أول ما يجب عليه أن يعلمه ، أن جهل الملاح من جهة العلم بالنظريات ، قد عوّضته عنه الطبيعة ذكاءً حاداً وقدرة على التعامل . ونقطة في ادراك المخالق ، وأيقنت فيه قوى العقل الباطن إيقافاً عديداً ، حتى يكاد يكود هذه بعضهم إلماً ممّا تردد الآباء وحدوثها . أصعب إلى ذلك أن طبيعة البلاد قد ثقفته بثقافة ورثها على مدى المصور ، ثقافة أحببت فيه روح البقة ، يتنقّل بها الأحداث مكتفياً بلسانه ، ثابت القلب ، قوي للجذان ، عظيم الثقة بنفسه . فان بلاداً تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا ، ويفيض فيها النيل في مواعيد محددة ، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فرص يجب انتهازها ، وعلمه أن أهال ساعة أو يوم قد يفوّت عليه رزق عام : هذا الملاح الذي أكتملت ثقافته العملية من هذه التواحي وأمناها ، وهي كثيرة متعددة ، هو بهذه موضوع دوس صعب لا يستغني عن معرفته مصرى يريد أن يعيش فرق أرض مصر ، وعلى ضفاف نيلها سرتقاً بخلافها مفتّاً في إحياء خيراتها . ولاشك في أن هذه الناحية الضخمة من توالي ثقافتنا التقليدية ، مهمة في معاهدنا كل الأهال ، فالصريون مع الأسف أجهل الناس بتاريخ بلادهم ، ذلك في حين أن تاريخ كل شعب جزء لا يتجزأ من ثقافتنا التقليدية . وأعني بتاريخ بلادهم تاريخها الاجتماعي والثسي ، لا تاريخ الشهود والأعمام والقرون والغزو والموت والملائكة ، تلك الأحداث التي هي عندي في طبيعة الأمم والآلهيات أحبه بالأحلام .

فأكـتاب المـعلم الذي يدرس مـذاهب اليـونان الـفلسـفـية وتأـريـخ رـومـيـة وـالأـغـارـقـة ، ومـذاهب الـأـدب وـمـقدـمة التـواـزن ، إنـي غير ذـاك ما يـقـلـي الشـابـ بين جـدرـانـ مـعـاهـدـنـا ، منـ غيرـ أنـ يتـصلـ بـثقـافـةـ بـلاـدـهـ التـقـليـدـيـةـ ، شـابـ مـصـرىـ بـالـاسـمـ ، لـاـ بـالـروحـ وـلـاـ بـالـتقـالـيدـ . هـيـ بـجهـلـ مـبـيـعـ بـلـادـهـ وـخـلـقـ أـهـلـهـ ، وـتـارـيخـ المـصـورـ الـيـ تـوـالـتـ عـلـيـ وـطـيـهـ أـحـدـهـاـ ، وـشـكـ الـسـكـومـاتـ الـيـ تـنـاوـلـتـ الـحـكـمـ فـيـهـ ، وـلـيـرـاتـ الـدـيـ وـرـونـهـ عـنـ أـجـادـهـ الـاقـدـمـينـ . وـلـاـ زـيـرـةـ فـيـ أـنـ شـائـئـهـ هـذـاـ شـائـئـهـ ، إـنـاـ يـخـرـجـ مـعـاهـدـ الـمـعـلـمـ مـتـعـلـمـاـ جـاغـلـاـ ، وـإـنـ شـائـئـ فـقـلـ يـخـرـجـ مـتـعـلـمـاـ مـشـحـونـ الـفـنـ

ـ بـكـثـيرـ مـنـ الـمـعـلـمـاتـ الـيـ مـنـ شـائـئـهـ أـنـ تـقـصـلـهـ عـنـ طـبـيـعـةـ بـلـادـهـ وـلـعـبـرـهـ فـيـ عـيـنـهـ غـرـبـيـاـ ، كـائـنـهـ عـلـمـةـ جـدـيـدةـ فـيـ شـائـئـهـ ثـيـ قـدـيمـ . وـمـنـ هـنـاـ يـكـرـزـ عـبـرـهـ عـنـ الـكـفـاحـ فـيـ الـحـيـاةـ ،

ومن الانسال بالأرض التي أثأته وأثأنت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ، والمحصل أننا مشرعون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر لأن كثرة المتعلمين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية، فأصبحوا فيها غرباء، وسُيّل في الصناعات التالية بكل ما صوّرنا حتى الآن من تأثير حيّاتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم.

\*\*\*

ظاهر إذن مما سبق أن القول فيه ، إن لكل أمة من الأمم ثقافة تقليدية ترثها عن ألافها، وإن هذه الثقافة تصبح بالوراثة قطعة من غيرها وجزءاً من فطرتها، لا تنفك عن هذه أمة من الأمم أو تكون قد افتك عن أخص عيزاتها، وأعظم مظاهرها الاجتماعية . وعقبت على ذلك كله ، بجمل العلاقات التي تربط كل أمة بثقافتها التقليدية إماهاراً لوجية لنطري في هذه المسألة المبورة .

على أن ما أحاطت به فيما سبق قد قصر على بيان العلاقة التي تربط الثقافة التقليدية في كل أمة بظاهرها الاجتماعية ، من حيث أنها مظاهر اقتصادية لا غير، والآن أريد قبل أن أختم هذه البحـرـتـ ، أن أظهر أن لنطري في الثقافة التقليدية أثراً في تكون العقلية الفردية ، وتكييف العقلية الجماعية مذكورة في كل أمة من الأمم ، يقتضى الظروف وال الحالات التي لا يمتها منه أقدم عصورها التاريخية .

ومن أجل أن نبين عن حقيقة ما نقصد إليه ، نحصر الكلام على أخص الظواهر التي تأثرت من حولها مجاجة البقد وكثير فيها المبدل ، حتى أصبحت من عقلية المهدور التعليم ، جوءاً لا يتجزأ .

ولا ريبـةـ أنـ فيـ حـيـاتـناـ الحـاضـرـةـ مـظـاهـرـ ،ـ هيـ بـحـكـمـ العـصـرـ الـقـيـ نـيـشـ فـيـ وـالـحـالـاتـ الـتـيـ تـكـتـنـتـ ،ـ أـحـلـ مـنـ عـيـرـهاـ وـأـيـنـ فـيـ تـكـيـيفـ بـقـائـيـنـاـ مـنـ كـلـ اـنـثـواـرـ الـأـخـرـ ،ـ وـأـنـدـ بذلك الأدب من ناحية ، والوطنية من ناحية أخرى .

وأول ما ييدو إلى ذهن الباحث في هذا المقام أن يسأل : أـمـنـ عـلـاقـةـ بـيـنـ الثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ وـالـأـدـبـ ،ـ أـهـنـاكـ عـلـاقـةـ بـيـنـ مـذـهـنـةـ الـتـقـلـيدـيـةـ وـالـوـثـقـيـةـ ؟ـ أـيـكـونـ مـاـخـيـ الـأـمـرـ أـنـ يـكـونـ أـدـبـاـ

وصحن وظيفتها بصيغة خاصة ، وهل من رابطة تربط بين تصورات ومثاعر وعواطف درجت عليها التروـن ، وبين أبناء جيل يحيـلـهمـ لهمـ تقضـواـ أيـديـهمـ منـ المـاضـيـ وأـنـزـلـوـاـ عنـ كـوـاهـلـمـ تـرـابـ الـأـزـمـانـ الـقـارـةـ ، فـأـصـبـحـواـ خـلـفـًاـ جـدـيـدـاـ ، وـأـمـةـ مـسـتـحـدـثـةـ منـ عـنـاصـرـ لـأـنـتـ إـلـىـ الـقـدـيمـ بـسـبـبـ مـنـ الـأـسـهـابـ ؟

ما كانباحث أن يسأل هذا السؤال وما كان لهذا السؤال أن يدور في عقلية مفكر ، لو أن لنا بثقافة التقليدية صلة أو كان هذه الثقافة علاقة بأدبنا أو حلة بوطننا . وإنما يدور هذا السؤال في عقلية كل مفكر يحكم أننا قطعنا صلتنا بالماضي وفرطنا عقد رابطنا بعصر القيمة ، وبالآخر حلتنا العقدة التي تصل بين جبل حياتنا الحاضرة والنجيبات التي تتكون منها شبكة حياتنا الماضية . ولا شك في أن الفرد غرفة الماضي . قبل أن يكون ابن الحاضر ، وصلته بذلك الماضي صلة وراثة . أما صلته بالحاضر فصلة ضرورة

ولا مرة في أنـ هذاـ السـؤـالـ غـيرـ طـبـيـ فيـ أـمـةـ أـحـكـتـ صـلـتـهاـ بـماـضـيـهاـ ، وـوـكـلتـ روـابـلـهاـ بـثـقـافـةـ آـيـاـهـ الـأـوـلـيـنـ . فـهـرـ بـنـاهـةـ أـنـ تـسـأـلـ مـنـلـاـ : أـمـنـ عـلـاقـةـ بـيـنـ دـيـ الـذـيـ يـجـبـيـ فـيـ عـرـوـقـيـ ، وـدـمـ جـدـيـ أـوـ جـدـيـ جـدـيـ ؟ وهـلـ مـنـ صـلـةـ بـيـنـ تـصـورـاتـيـ وـمـدـاعـرـيـ وـمـيـولـيـ ، وـبـيـنـ طـبـيـةـ الـأـرـضـ الـتـيـ تـعـذـيـنـ ، وـأـهـوـاءـ الـذـيـ يـسـيـ وـالـهـاءـ الـتـيـ تـظـلـيـ ؟ ذلكـ بـأـنـ الـأـمـ مـقـدـرـتـ صـلـتـهاـ بـماـضـيـهاـ ، وـلـشـقـتـ دـائـمـاـ غـيرـ الزـوـجـ الـذـيـ سـرـىـ فـيـ كـيـانـهاـ مـذـ أـبـدـ الـصـورـ ، لـنـ تـعـرـيـوـمـاـ بـأـهـاـ فـيـ حـيـطـ غـيرـ عـيـطـهاـ الطـبـيـعـيـ ، أـوـ أـهـاـ فـيـ بـيـانـ خـيـرـ يـيـشـتـهاـ تـقـطـرـيـةـ ، فـيـظـهـرـ أـنـ ذـكـ كـهـ مـعـكـوسـاـ فـيـ جـمـعـ مـظـاهـرـهاـ . وـبـخـاصـةـ فـيـ آـدـابـهاـ وـفـيـ وـصـيـتهاـ . أـمـاـ وـنـحنـ شـعـرـ الـآنـ بـأـنـ أـدـبـنـاـ أـدـبـ مـصـنـوـعـ ، لـأـدـبـ فـطـريـ ، وـأـنـ وـظـيـفـنـاـ وـعـنـيـةـ ظـاهـرـةـ لـأـوـطـنـيـةـ حـقـيـقـيـةـ ، فـإـنـهـ مـنـ الطـبـيـعـيـ أـنـ تـسـأـلـ أـنـفـسـنـاـ عـنـ سـبـبـ ذـكـ ، وـمـنـ الطـبـيـعـيـ أـنـ تـحـمـدـ الـجـوابـ فـيـ النـظـرـيـةـ الـتـيـ أـدـلـنـاـ بـهـاـ مـنـ قـبـلـ فـيـ الـعـلـاقـةـ الـتـيـ تـقـومـ بـيـنـ الـظـاهـرـ الـاجـمـاعـيـ وـالـقـوـافـيـةـ الـتـقـلـيدـيـةـ الـتـيـ تـخـتـصـ هـاـكـلـ أـمـةـ مـنـ الـأـمـ ، وـتـخـتمـ مـصـرـ بـدـورـةـ مـنـهاـ .

قرأت مـذـ سـنـواتـ فـصـيـدةـ عـنـاـنـاـ «ـ فـيـرـةـ شـبـلـيـ »ـ . وـعـكـسـتـ كـعـادـيـ فـيـ كـلـ مـاـ أـقـرـأـيـ فـيـ الـمـرـجـاتـ عـلـىـ مـقـبـلـهاـ بـالـأـصـلـ ، وـأـلـقـيـتـ أـنـ الشـاعـرـ الـمـرـجـمـ قدـ أـجـادـ فـيـ الـمـحـافظـةـ عـلـىـ الـمـعـانـيـ الـأـصـلـيـةـ ذـهـبـ مـاـ تـرـمـيـ أـوـ زـيـنـ الشـعـرـ وـفـوـادـ وـمـدـرـدـاتـ الـأـنـةـ الـعـرـبـيـةـ لـمـتـرـجـمـ . أـنـ يـنـقـلـ شـعـرـاـ مـنـ

الأنجليزية إلى العربية، واقتـد أحـسن الشاعـر التـرجمـيـلـكـ المـعاـنـيـ في قـاتـبـ عـربـيـ بلاـئـمـ دـوـرـهـ التجـديـدـ، معـ الحـافـظـةـ عـلـىـ جـرـسـ الأـصـلـوبـ الـعـربـيـ، فـأـكـبـرـتـ القـصـيـدـةـ وأـعـدـتـ تـلـاوـتـهاـ مـرـاتـ مـبـالـةـ فـيـ الـوقـوفـ عـلـىـ مـاـ فـيـهاـ مـنـ أـوـجـهـ التـقـدـ، وـوـزـنـهاـ عـلـىـ مـقـنـصـيـ الـحـايـرـ الـيـ

أـوـمـنـ بـهـاـ فـيـ تـقـيـمـ الشـمـرـ، وـلـمـ أـلـبـثـ أـنـ أـحـلـلـتـهاـ بـيـنـ مـاـ اـعـتـقـدـ أـنـهـ مـنـ جـيدـ الشـمـرـ الـمـادـيـ، خـيرـ أـيـ بـعـدـكـ هـذـاـ كـتـ أـفـعـرـ بـاـنـ فـيـ القـصـيـدـةـ مـاهـيـةـ أـخـرىـ تـبـعـدـهـاـ عـنـ طـبـيـ، وـقـصـيـهاـ عـنـ تـسـوـرـأـيـ وـتـجـارـبـيـ، وـتـلـقـيـ فـيـ روـعـيـ أـنـ غـرـبـ عـنـ الـجـوـ الـذـيـ تـغـلـقـهـ مـنـ حـولـيـ، فـلـاـ الـجـوـ الـذـيـ وـسـفـهـ «ـشـيلـ»ـ وـغـنـاءـ بـالـسـحـابـ اـنـتـامـ الشـدـيدـ السـوـادـ هوـ الـجـوـ الـذـيـ أـعـرـفـ، وـلـاـ الغـنـاءـ الـقـوـيـ الـمـنـونـ الـذـيـ تـرـمـلـهـ قـبـرـتـهـ هوـ نـفـسـ الغـنـاءـ الـذـيـ أـدـهـدـهـ فـيـ قـبـرـاتـناـ، وـلـاـ لـوـنـ الـأـمـنـ الـرـوـبـاـيـ الـذـيـ يـجـعـلـهـ نـظـاـرـهـ تـحـتـ السـحـبـ السـوـدـ كـأـنـهـ شـرـارةـ مـنـ طـبـيـ، هـوـ لـوـنـ القـبـرـةـ الـمـغـرـبةـ السـفـعـاءـ الـذـيـ آـنـهـاـ فـيـ حـقـولـيـ، كـذـلـكـ رـأـيـتـ فـيـ ذـكـرـ السـيـولـ وـالـأـمـطـارـ الـغـارـةـ الـتـيـ تـرـسلـهـ مـهـاـ اـنـجـلـانـداـ هـيـنـاـ جـدـيـداـ لـاـ عـلـاقـةـ لـهـ بـعـيـطيـ، وـلـاـ صـلـةـ لـهـ بـيـثـيـ، وـعـلـ الجـهـ شـعـرـ بـأـنـيـ أـفـرـأـ خـيـالـاـ أـنـجـلـيزـيـداـ فـيـ شـمـرـ عـربـيـ، خـيـالـ يـجـدـيـنـيـ مـنـ نـاحـيـهـ الـقـنـافـةـ غـيرـ بـشـافـيـ الـتـقـلـيدـيـ، بـلـ يـقـصـيـ عـنـ تـجـارـبـيـ وـمـشـاهـدـاـيـ، وـلـاـ كـلـ مـاـ يـبـيـيـ، لـيـ القـصـيـدـةـ مـنـ قـنـدرـةـ عـلـىـ التـصـورـ، هـوـ مـاـ تـحـصـلـ أـفـاظـهاـ الـعـربـيـ مـنـ مـعـانـ أـنـجـلـانـداـ تـحـبـلـاـ وـأـنـسـوـرـهـاـ تـصـورـ الـمـدـسـ وـالـوـهمـ، وـأـنـ آـلـهـ الـإـلـادـاءـ، وـهـيـ الـلـغـةـ الـعـربـيـ، هـيـ النـاحـيـةـ الـوـحـيـدـةـ الـتـيـ تـقـرـبـيـ بـعـضـ التـقـرـبـ مـنـ الـجـوـ الـشـعـريـ الـذـيـ تـكـيـفـ بـهـ القـصـيـدـةـ مـشـاعـرـيـ، وـلـاـ شـكـ فـيـ أـنـ الشـمـرـ شـيـءـ وـأـلـهـ اـدـائـهـ شـيـءـ آـخـرـ، وـأـعـاـيـكـوـنـ الشـمـرـ مـتـعـلـلاـ بـطـبـعـ الـأـنـانـ مـتـىـ اـسـتـمـدـ عـنـمـرـهـ مـنـ قـنـافـةـ تقـلـيدـيـةـ لـاـ يـعـنـتـ التـصـورـ إـدـراـكـاـ، وـلـاـ يـتـعـبـ الـطـبـالـ تـصـوـرـاـ، فـيـشـتمـلـ عـلـىـ نـوـاحـيـ

الـنـفـسـ وـيـخـاطـبـ الـرـوـحـ بـدـيـةـ، قـبـلـ أـنـ يـخـاطـبـ العـقـلـ.

عـقـتـ عـلـىـ هـذـاـ بـقـرـاءـةـ قـصـةـ مـرـجـةـ عـنـ كـاتـبـ روـسـيـ مـدـهـورـ، فـآـتـتـ فـيـهاـ شـعـطاـنـاـ فـيـ الـوـصـفـ وـمـنـالـاـ فـيـ اـتـقـدـيرـ، وـتـحـلـيلـاتـ تـقـيـيـمـةـ مـعـقـدةـ غـاـيـةـ (ـتـعـقـيـدـ)، بـعـيـدةـ كـلـ الـبـعـدـ عـنـ

بسـاطـةـ الـرـوـحـ الـمـفـرـيـ الـذـيـ آـنـهـ فـيـ النـسـاجـ الـادـجـ الـذـيـ نـأـتـ مـعـنـاـ بـقـافـيـ)ـ التـقـلـيدـيـةـ.

وـلـاـ أـرـيدـ أـنـ أـبـعـدـ شـعـصـيـاتـ هـذـهـ الـرـوـاـيـةـ لـأـحـكـمـ إـنـ كـنـ فـيـ الـذـبـ شـعـصـيـاتـ حـقـيقـيـةـ تـقـابلـ

الشخصيات التي وصفها الكاتب وحل نصيتها<sup>(١)</sup>، وإنما أريد أن أقول إن تحليل ذلك الكاتب ، مهلاً كان فيه من حق وبعد عن المغالاة ، وسواء كانت الصفات التي أتفاها على شخصياته تلك صفات يمكن لنفس بشرة أن تنطوي عليها ، أم أنها شخصيات خيالية لا تقترب لها حقائق في الخارج ، مثل ما أرى إليه أن أقول إنها شخصيات لا تربطها بها رابطة ، ولا تصلني بها صلة ، وأن محبطي الذي أعيش فيه ينكر وجودها وينفي حقيقتها ، وبالرغم من أن شخصاً آخر في سبط آخر ، قد يرى أنها شخصيات طبيعية ، بل قد يجسمها خياله على مقتضى تجاربه التي يشهدها في حياته .

ولا أقصد بذلك أن مثل هذا الأدب غير مفيد في توسيع مجال الخيال ، ومد آفاقه وتنويع الصور التخييلية ، وتوسيع قواعد الأدب المصري من حيث صله بالأدب الأخرى . وإنما أقول أنه مهلاً كان فيه من الميزات ، فهو أدب دخيل لا أدب أصيل . أدب لا علاقة له بثقافتنا التقليدية ، فهو من طبع غير طبعنا ، وفطرة خلاف فطرتنا ، أما هو أدب تصوري ، لا أدب حقيقي ، مقياسه معاييره بمقاييس حياتنا المعاصرة ، ومحبظنا الخاص . أدب لا تفهم منه فطرتنا إلا القليل النادر . هذا على اعتبار أن العلم بالأدب هي ، وهضمه وتعنيه في الروح شيء آخر . ولن يكون للأدب من أثر في الحياة إلا بأن غنه الروح ، فيصبح جزءاً منها ، فتترشد بهاته وتنتعظ بهنلاته ، وتدركه منه المقائن إدراك استيعاب ، لا إدراك علم بها ، دون الاعان على فيها من حقوق ووقائع .

وما أريد أن أستطرد في ضرب الأمثال ، فإن فيما أوردت منها شيئاً عن ذكر غيرها ، ذلك بأن كثيراً مما تقرأ في الصحف والمجلات ، وكثيراً من المؤلفات يجري هذا المجرى ، وبسبيل هذا السبيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث ، لكترة ما فيه من الرفع والارتفاع ، ولكترة ما فيه من سور الأوردية ، كأنه «عصبة أعم» ولكن في صحف ، صدرت بكلمات عربية .

في وسط هذه المسرور العجيبة الشفافية ، وفي غمرة تلك الفوضى السائدة في الأدب على مختلف أنواعه وعلى مختلف وجوهه ومتباين ضروريه . أتفح على الأدب المصري الصريح

١. رواية الملاحة الروسية درسنيتسكي : لاشنة كراهازوف

أصحاب مبارك ذاك الذي حلّ جلة من متفقهين هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين .

لا زيب مطابقاً في إن لكل عمل إنساني غرض أصيل يرمي إليه . فما هو الغرض الذي

رأى فيه من التعليم ؟ وما هي السبيل التي ينبغي أن تسوق فيها الشباب ؟ ذلك ما لم يعرض له المؤشر بطريقة واضحة . وعندني أن انفرض الأسئلة من التربية هو تنشئة رجال مستقرين . رجال ، الاستقلال أحسن ميزتهم . رجال مستقلون في الرأي والخلق وفي كسب الرزق الحلال ، بحيث تضعف فيهم صفة التطفل الاجتماعي وانتواكل ، بقدر ما تقوى فيهم صفة الاتجاج والأمسالة .

أريد أن أقول إن التعليم المحيي الذي يسد هذا الفرض، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية التي تكتنفنا في هذه البقعة التي لشفلها من كرة الأرض. كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه الطائفة من الرجال، هو التعليم الذي ينصل بثقافتنا التقليدية.

هذه النظرية الجديدة المقتبعة من دميم يلتانا، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظرته، فك الأغلال، والاتجاه نحو آفاق الحرية الاجتماعية السليمة من أفراد العائلة والأشقاء الاجتماعيين.

طبع الآئين الماتب ، عا فيه من فرة المقاومة السُّلْطَنِيَّة ، الفرس والروم والرومان والعرب ، والمماليك والأراك ، ولا يزال مستمدًا لابلاع خمسين قَيْنَصَرِيَّةً من أمثال هذه القَيْنَصَرِيَّاتِ المُطَهَّرَاتِ ، وهو بايع في عُقُورِ حَفَلَيِهِ الصغير ، وفي كثُرِيَّته الطُّفُّيَّيِّ ، فاركاً دورات الحظ تدور بالسُّدِّ حيناً وبالنُّحْسِ حيناً آخر ، وما يهمه في الحياة من شيء ، إلا أن يضجع ساخراً من الأدم وآلهاته .

عن أذ الاطنان في مثل هذه الأشياء تحصيل حاصل . والاستطراد في ذكر الشوامد عَيْبَتْ . لأننا نشعر شعوراً كاملاً بأن الأدب المصري أعم على غير مسمى . وإن ثُنث قيل إنه فرعون لاحقيقة له . وأغاً أقصد بالأدب المصري . الأدب المقطوع من حباتا ومن أقنسنا ومن أخبلتنا . الأدب الذي إذا قرأته تبيّنت فيه مصر وأرغم مصر وسياه مصر وتاريخ مصر وعلى الجلة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في قوسنا الرسية في طبعنا المازية في أرواحنا .

أما البُّلْبُلُ في كل هذا فهو أنا بَعْدَنا عن ثقافتنا التقليدية ، بل أنا نعلمها علينا بالماضي وهيمنا في فَلَوْاتِرِ لا نعرف فيها طريقاً يُسْكِنُكَ ، لا إلى الإمام لنمير أو ديبين سرقاً . ولا إلى الوداء لنعود إلى مصر يتنا مرة أخرى . وإننى نحن في الشَّيْهِ . ولكنه الشَّيْهُ الذي سرف لا نخرج من ثلاماته ما دمنا غير قادرٍ على تقدير حقائق وجودنا تقريباً مصححًا . وما دعانا حاجزين عن إبراك تلك المُطَهَّرَةِ الأولى . حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي المُلْجَأُ الآخرُ الذي يُوقظُ فينا « الروح المصرية » ، التي من طريقها تُسْكُونُ الأدب المصري الذي يعني أن يكون من حياتنا الأدبية بعثة المهاجر المغضي في الحياة . فيه تضم الأداب الأخرى ثم تُمثل<sup>١١</sup> أداباً جديداً ملائماً لآدابنا ومتاعتنا وأخبلتنا . وفي الوقت نفسه تطرد الشياطين . تلك النفايات التي نسب أدابنا وتفده . لأن أدابنا الجديد أضعف من أن يفرزها إلى الخارج جسم الشهداء الفثير .

هذا من حيث الأدب . أما الوظيفة المصرية ، ووسمها بأسمها وطنية غاورية . فلا يرجع إلى حب الأغراض . ولا إلى حب التقدّم غير دليل يقام . أو حجة مقبولة . لهذا قسم الوظيفة

(١١) بالمر الأسبق : في شعور حرارة من النظر

قرينين : فمَا ينهى الشباب المتعلم وعلى رأسه الاحزاب . وقسماً منه الفلاح الساذج . على أنه يبني لنا قبل الاستطراد في شرح صفات القرينين ، أن تعرّف كيف نشأت الوطنية ، ومن أي نوع شتتمت تصوّراتها . وما من شك في أن الوطنية المصرية إنما استحدثت أول خطواتها من آداب انورقة الفرنسية الكبرى التي قلبت نظام الحياة في أوروبا في أوائل القرن الثامن عشر . والدليل القاطع على هذا أنه منذ عصر عرابي إلى اليوم توى أو القرينين وأصبحا جلياً في كل ما أدت الوطنية المصرية من الخدم الجسام لمستقبل مصر الحديثة . فالقسم الأول يأتم بالنظريات التي ذاعت في فرنسا في عصر ثورتها وظل موثقاً بها حتى الآن . والقسم الثاني ظلل مستكيناً بتصوراته القديمة التي عكفت عليها طوال المصور الذي غلت فيها مصر ميداناً لتطاحن الأمم والقياصريات .

أما القسم الأول ، وهي الفئة التي عكفت على النظريات الأوروبية شتتمت منها تصوّرات الوطنية فكانت في كل الأدوار التاريخية متذمّنة عقود من ازماز ذات الآثر الواضح في تكيف الظروف التي لا بدّت كياننا السياسي . فهي التي بقت الروح الجديدة وسادتها في طريق أجر مقاومتها على أذى يبدوا من موقعهم إزاءها تدرّيجياً على مقتضى قوّتها أو ضعفها حتى أصبحنا اليوم وفي حيّاتنا السياسية عنصر حديد لم تعرفه مصر منذ عشرين قرناً من الزمان . غير أنه مهادئ في هذه الوطنية ظلّ مظاهرها ظاهرة على تصوّرات ذلة قلبية العدم مقيدة بقيمة الدين يؤمنون بالوطنية مسبوكة في التائب الذي دوّرَه الفلاح المصري ليكون حدّاً لوطنيته . وأن كلّ ما نبذل على وطنيته هذا الفلاح دون غيرها

قد تعجب ويشتدّد المتعجب إذا أنا قررت هنا الفلاح المصري شديد الوطنية معالِمها ، بل متطرف في وطنته أشدّ تطرف ، ولكنك بمحاب هذا تسأل أين الآثار التي تتجلى فيها هذه الوطنية . فأجيبك بأنّها تظهر كل يوم على صفحات جرائدنا الاخبارية ، وتتفعل بها الحكومة في أكثر أيام السنة ! ألا تقرأ كل يوم أن فلاحة حزرة أخباره لأنّه انتهى عن حقه بهذه حزرة من حدوده ؟ ألا تسمع أن أسرة عهرت السلام في وجه أخرى لأنّ أحد أفرادها أراد أن يأخذ نصيب آخر من الماء ، وأن الموقفة أهلت عن فضيل وجروحى وأمرى هرمن بـ«تحقيق» إذن «تعرف أزدهاره في الآثار التي تكتس به ومنهاته» ؟

أما الوطنية نفسها فتطوي على حب المقل والدفاع عنه بالمال والولد وبالروح، ذلك لأن الفلاح الذي نقد حقوقه المدنية والسياسية طوال عصور قلما تعينا الذكريات، وتزول به من العادات ما لا يعين رأت ولا أذن سمعت، لم يصبح عنده في الدنيا من شيء ذي قيمة إلا ذلك المقل بمحدوده الأربع، وإلا ذلك الترور من لقاء الموسي الذي يجود عليه بالرزرق الملال.

أما السبب في أن تنصر الوطنية المصرية حتى تصعد في نظر الفلاح الذي هو أهم عناصر مصر الحيوة محورية في داخل هذه الحدود الفنية فراجع إلى أصحاب تاريخية. فإنه منذ خروج الإسكندر المقدوني، ومن قبله بشر سينين، أي منذ أن طرد الفرس آخر ملوك الفراعنة وأمهاته «قطانيبيو» لم يكُن المصريون في بلادهم يوماً واحداً، وظلّ المصريون بين المقول يزدّهروا ليغدووا أنفسهم، ويغدووا أسيادهم الذين يتسلطون عليهم من أمم أمة كانوا، وبأيدي دين دائراً. فقد استطاع الضربيون قبل الغزو الفارسي الأخير أن يستردوا حريتهم المرأة بعد المرأة، عقب كل خروج دعوه به أمم أجنبية كالمكسوس وغيرهم، وأن يقيموا على عرش بلادهم أسراماً من الفراعنة تحيي تقاليد الحكم والقافة والثافة، تلك التقاليد التي نسأت وورقت في مدى عصور متواترة. ولكن تلك النزوة كانت آخر عبد ملوك الفراعنة الذين تحجى في عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل والى آخر الدهور. فمنذ ذلك الإسكندر، خضعت مصر ألف سنة لحكام هليني للزيارة من مقدونيين ورومان، وفي ثباتها صارت مصر جزءاً من جسم الأسلام، فبدلت تبديلاً، وأصبحت لها لغة أخرى، ولنظام اجتماعي لا يهدّطاه، ودين جديد وبناد آلته الدين عبدوا في مصر على أيام آلهتها التلوّاص الآلاف من السنين بينما أبدئيائهم دفنوا في تراثها. ومنذ ذلك التاريخ لم يغزو مصرى أصل بالحكم على شطآن النيل، بنقد مرأة عصور طيبة كعصر البطالمة لم يكن في الحكومة كثها من مصرى شغل مركزاً أكبر من مركز صرّاف يحيى تعال. بل وأدى المصريون معابدهم المقدسة تباخ فيتحذّلها المقدونيون موضعاً لهم وعيشه ومركزاً وعربيتهم ورأوا الفرس يذبحون عبّالهم المتقدّر من قبل ذلك.

ولقد كان لهذه المزاحمات التاريخية آثار كبرى في الوطنية المصرية خدّها بمحدود المقل المقدس. وأعماصار سحق متداساً في عنصر الموري لأنّه كان الملاحة لوحيد الذي جاء إليه ذهابه

من الاتراث الشام . ولو لا ذلك الحقل إذن لاصبحت مصر اليوم إما رومية وإما لاتينية . ولكن الحقل قام سداً بين الفراوة وبين المصريين أين منه مد ياجوج ومأجوح . ذلك بأن روى مصر لم يكن ليزره إلا المصري ولا يقوى عليه غير المصري . لهذا عبده المصريون بعد « أيس » وتدّمه في الأعصر الحديثة تقديساً ليس فوره متده شيء إلا خشبة الله . ففي الحقل رزقه وقوته . وفي طرف منه قطعة صوينة لا تزيد مساحتها عن بضعة أقدام مرتبة فرشت بنبات المثفاء هي مصلاه . فلخلل الفلاح حمل صغير مقدس ينود به بالروح ويبدل في صبيحة الدم لأنّه ملجهه الأخير وملاذه ومبتغاه . وبالجملة أصبح له كما يقول « هوجو » البيضة والمش والكلن والوطن والكون .

فلا عجب أنني في أن تتحصر الوطنية المصرية ونعني بها وطنية السود من أهل مصر في خمود ذلك الحقل ولا تتعداه . وكيف تتعداه وقد آمنت فيه الحياة آلاف السنين وأمتنعت في تربة الأجيال ثم الأجيال .

وكما أنها عجزنا عن أن تكون أدبنا مصرياً صحيحاً نموي الروح والأخلاقي بأن يهدنا عن تقاعتنا التقليدية فكذلك عجزنا عن أن نخرج لهذا السبب عنه ونعيينا من حدود الحقل إلى حدود مصر ، وليس هذا وحده انتسب في أن وظيفتنا ظاهرية ، بل أن هناك معيلاً آخر يجعل في أن أصحاب الفرقان الأول من وطنيتنا وهم الذين يستبدون تصوراتهم الوطنية منقوله من أوربا ، لم يتغلبوا في صيم مصر ليفهموا حقيقة السبب في ضعف الوطنية المصرية ، وإنما يجب علينا أن نعكف على ثقافة تقليدية نترعرعها من صيم مصر ، لتكون عوننا في بناء صرح العجد كاماً اقتصادياً وأدبياً ووطنياً .

وأما نشلنا في هذا حتى الآن فالرأي في « نزوه » إلى المساحة التي جرى عليها التعليم في بلادنا بغير جدال . ومنظهر في ما يتلو من البحث ، جهد مستثناعنا ، كيف ننجو بثقافة تقليدية مستحدثة تتقذننا من البوار الخنزير .

لقد بالغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيئ لنا أن نخلاص إلى النتائج تقد شرحتنا الأسباب التي أفضت بما إلى تخرج متطلعين متطلعين لا عن لهم ، ولا يبيأة يمكن أن يتفتح فيها بما تعلموا ، وصراحتنا تمثل النتائج اللاحقة بهما التي تترتب على ذلك الحال ، وبعدهما التغيرات

فاستبعـدنا منها صورـة لما ، وفـيكون علـيـه عـصـنـا فـي الـمـسـتـقـبـلـ التـقـرـيبـ ، وـانـتـاجـ الـدـيـنـةـ الـىـ منـظـرـ آـثـارـهاـ جـلـيـةـ وـاضـحةـ فـي عـزـونـاـ عـنـ الـاحـتفـاظـ بـحـالـةـ اـجـمـاعـيـةـ ثـابـتـةـ قـوـيـةـ الـأـرـكـانـ ، وـعـطـئـنـاـ مـنـ ثـسـتـ اـلـىـ وـصـفـ صـورـةـ مـنـ أـدـبـاـ وـوـطـيـنـاـ ، وـعـزـ وـنـاـ كـلـ النـقـائـصـ إـلـىـ نـظـرـيـةـ جـدـيـدـةـ مـؤـمـلـاـ أـنـ الـاتـصالـ عـنـ ثـقـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ كـذـلـكـ يـقـيـنـيـ أـنـ تـصـبـرـ كـكـالـنـ حـيـ لـأـمـدـةـ لـهـ يـأـكـلـ وـلـاـ يـهـضـمـ فـتـرـاـكـتـ فـيـ كـيـاـنـهـ كـلـ النـسـائـاتـ الـىـ لـأـنـلـامـ ضـيـعـ ، وـلـاـ تـنـقـقـ وـرـاجـهـ . وـأـنـ ذـلـكـ كـانـ مـبـاـيـنـاـ فـيـ أـلـاـ ظـاهـرـ لـهـ شـخـصـيـةـ خـاصـةـ بـهـ وـأـصـبـحـ كـلـاـ عـلـىـ غـيـرـهـ بـأـنـ فـقـدـ اـسـتـقـلـالـهـ الـذـاـيـ .

وـيـجـدـرـ بـنـاـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـ لـعـبـيـنـ رـمـ تـكـوـنـ ثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ لـتـبـرـنـاـ أـنـ خـدـمـ الـبـحـثـ تـحـدـيـدـاـ مـطـقـيـاـ مـقـبـلـاـ فـاـذـ لـكـ ثـقـافـةـ تـقـلـيدـيـةـ اـخـتـمـتـ بـهـ أـيـةـ مـنـ الـأـمـمـ مـكـوـنـاتـ تـنـتـيـ إـلـىـ أـسـوـلـ بـعـيـنـاـ . وـعـنـدـيـ أـنـ ثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ عـنـصـرـيـنـ . الـأـولـ عـنـصـرـ عـقـلـيـ . وـالـثـانـيـ عـنـصـرـ مـعـاشـيـ وـكـلـاـمـاـ مـوـرـوـوـتـ . ذـلـكـ يـكـوـنـ وـرـاثـةـ مـنـ الـأـلـفـ وـالـدـيـنـ وـالـتـارـيـخـ وـالـأـدـبـ وـالـقـوـنـ الـخـ . وـالـثـانـيـ : يـكـوـنـ زـوـرـانـةـ مـنـ كـلـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـالـأـحـوالـ الـمـيـشـيـةـ وـهـيـ فـيـ مـصـرـ الـرـاعـةـ وـمـاـ يـتـعـلـقـ بـهـ مـنـ الـمـتـعـانـ وـمـنـ أـجـلـ أـنـ يـكـلـ اـسـتـقـلـالـ الـفـرـدـ اـسـتـقـلـالـاـ عـلـيـاـ فـيـ الـمـيـاـ . يـقـيـنـيـ أـنـ يـتـعـدـهـ تـشـيـيـهـ إـلـىـ أـصـلـ أـسـاسـيـ وـبـالـأـخـرـىـ إـلـىـ سـيـاسـةـ عـمـلـيـةـ تـرـمـيـ إـلـىـ وـصـلـهـ بـالـعـنـصـرـيـنـ وـصـلـاـ وـلـيـقـاـ حـتـىـ يـسـطـعـ أـنـ يـغـلـلـ جـمـيعـ مـاـ يـلـقـعـ بـهـ مـنـ مـنـتـصـبـاتـ ثـقـافـةـ الـمـدـيـنـةـ فـيـكـيـنـهـاـ عـلـىـ حـسـبـ مـاـ تـتـكـلـلـ خـاجـاتـ ثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ . وـأـنـ يـتـيـ عنـ جـمـهـ كـلـ مـاـ هـوـ غـيـرـ مـلـاـمـ لـهـ فـيـظـلـ سـلـيـماـ ، شـأـنـ كـلـ كـلـ حـيـ اـنـصـفـ بـكـلـ مـاـ تـعـدـ بـحـيـوـيـةـ مـكـتـمـلـةـ مـنـ الصـفـاتـ الـفـرـوـرـيـةـ لـلـحـيـاءـ ، وـتـنـكـادـاـ فـيـ كـيـاـنـهـ كـلـ لـأـفـالـ الـتـيـ تـرـجـعـ إـلـىـ قـدـرـةـ أـعـصـائـهـ عـلـىـ تـنـظـيمـ وـظـائـنـهـ الـمـيـادـةـ تـنظـيـمـاـ دـقـيـقاـ يـسـاعـدـ اـتـطـيـبـيـةـ عـلـىـ أـنـ تـفـسـحـ لـهـ فـيـ الـحـيـاءـ مـرـكـزاـ جـدـراـ عـاـيـاـ يـصـفـ بـهـ مـنـ مـنـاتـ وـبـنـالـهـ مـنـ مـقـدـرـةـ عـلـىـ اـسـتـقـلـالـ بـذـاهـ .

تـتـعـدـ مـصـرـ بـثـقـافـتـيـنـ مـنـ أـعـدـ الـتـنـافـاتـ الـتـيـ خـلـقـهـاـ النـوـعـ الـأـسـاسـيـ : ثـقـافـةـ الـعـربـ : دـينـ وـلـمـةـ . وـثـقـافـةـ الـمـعـرـيـنـ : فـنـاـ وـحـيـاءـ . وـلـاـ شـكـ فـيـ أـنـ ثـقـافـتـيـنـ تـمـزـجـانـ الـآنـ فـيـ الـمـصـرـيـنـ اـمـرـاجـاـ عـظـيـجاـ حـتـىـ يـتـبـعـ عـلـيـنـاـ أـنـ تـقـولـ إـنـ مـاـ فـيـ ثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ يـتـحدـرـ فـيـ يـنـتـجـ وـرـجـعـ اـنـتـافـرـ الـقـدـيـفـيـرـ مـنـ سـالـاتـ تـشـرـبـاـ مـاـمـيـتـ مـكـوـنـهـاـ . وـأـنـ دـمـتـاـمـاتـجـ بـهـ ، وـأـنـ تـسـورـاتـ

وشعراً وجماعاً ما فينا من صفات أبا شمكس عنها وتبعدت منها، وكذلك إذا تلنا «المصرية» فانا لا نعني بواهيتها إلا مرجع تبنك الثقافتين الجيدين الابن كورتنا على مصر العصور، وإن قوياً لتند إليه، ودطامة مثله لم بد ينتظراً إذا نحن استوحيناه، واستردهنا بوجهها وأخذناها أماماً تقيم عليه لمستقبلنا ولم نعرف عنهم شيئاً هنا الآن.

ولأن يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتها، الأولى : ثقافة تزودنا بها اللغة العربية والدين الإسلامي. وهذه الناحية تكرر أكثراً ما فينا من نظمات الأدب والعلم، والثانية: ثقافة تزودنا بها مصر القديمة وهذه بدورها تكون متجليناً الفي والماشي؛ ومنها يتكون ذلك التراث الخالد الذي ندعوه ثقافة المصريين التقليدية.

ولن يكون هذا البحث كاملاً إلا إذا عرفنا قيمة إنساناً بهذه الثقافة ومتدار ما تحتاج إليها في تكوين شخصيتها تكون ضمن معه القدرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة والعمل المتough التي يعيتها على إقرار لحالات الاجتماعية على أساس ثابت، وأأمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا الحديث.

لا ريبة في أن التعليم العام هو الأداة التي تمهد لنا سبيل الاتصال بثقافتنا التقليدية. وقد وضح لنا حتى الآف أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد أضفت من وسائل هذه الأداة إضافةً ظهر أثره جلياً في كل مرافقنا، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية ومادية.

حمد الأوروبيون منذ عهد النهضة الأدبية للحديثة إلى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا الماء الأول والصادرة العظمى في تلك النهضة. عمدوا إلى ثقافة اليونان وثقافة الرومان حتى لقد غلوا في ذلك باتخاذ لغة اللاتينية لغة دسمية في العلم وفي الأدب وفي الدين. فأحرروا بذلك ثقافتين لم يكن له مناص من احتجائهما لتكونا الوحدة بينهما وبين ماضٍ صبغ ثقافة حوض البحر المتوسط فرونّا بعدهما خاتمة ولون خاتم. ولا زالت جامعات أوروبا حتى اليوم تعنى الصناعة كلها بتلقييم عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً، بل وتحمّل دروس الثقافتين الرومانية واللاتينية أصلًاً من أدوار التثقيف العالي. فلمْ كان ذلك؟ ولأي من الأسباب الم gioبة التي دفع بها الأوروبيون في بهذه نبرتهم ترجع هذه المخالفة؟ إنما ترجع كما ذكرنا إلى أن الثقافة التقليدية هي

الأصل الذي يجب أن يظل ثابتاً في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ليكون ملائِقاً للآراء والنظريات وضرورـة الثقافـات الـدخـلية اـحتـفـاظـاً بـالطـابـعـ الأـصـيلـ فيـ الـأـمـمـ؛ ذلكـ الطـابـعـ الـذـيـ هوـ جـزـءـ منـ كـيـانـهاـ وـقـطـعـةـ منـ وجـرـدـهاـ وـلـيـكـونـ فيـ الـوقـتـ ذـاهـبـهـ الـعـدـةـ فيـ تـمـثـيلـ ماـ يـتـصلـ بـثقـافـةـ الـأـمـمـ منـ ثـقـافـاتـ الـمـنـجـلـةـ غـيرـ الـأـصـيلـ، وـتـكـيـيفـهاـ تـكـيـيفـاـ يـتـفـقـ وـزـمـانـهاـ وـمـشـاعـرـهاـ وـأـخـلـىـهاـ، وـعـلـ الجـلـةـ يـتـفـقـ وـثـقـافـهاـ التـقـلـيدـيـةـ، فـهـلـ اـبـعـانـاـ نـضـلـاـ هـذـهـ الـسـبـيلـ الـقوـيـةـ؟ـ وـهـلـ كـيـفـ لـنـاـ التـلـيمـ الـرـوـضـولـ إـلـىـ هـذـهـ الـغـایـاتـ الـعـلـىـ؟ـ

كـادـ لـمـ يـكـفـلـ لـنـاـ التـلـيمـ عـيـناـ مـنـ هـذـاـ، وـأـقـصـدـ بـهـ التـلـيمـ بـنـاحـيـتـهـ؛ النـاحـيـةـ الـتـيـ تـمـثلـ وـرـاثـتـاـ مـنـ الـعـربـ لـهـ وـدـيـنـاـ، وـأـعـنـيـ بـهـ الـأـزـهـرـ، فـاـنـهـ لـمـ يـلـقـحـ شـيـءـ مـنـ الـأـسـالـيـبـ الـمـدـدـهـ الـيـ تـجـبـ أـذـيـقـشـ بـهـ اـسـكـونـ لـهـ بـنـاحـيـةـ الـدـمـ الـمـدـدـيـ بـمـحـرـيـ فـيـ الـعـرـوفـ الـقـديـعـ، وـكـذـلـكـ لـمـ تـمـ تـعـنـ النـاحـيـةـ الـتـيـ تـمـثلـ ثـقـافـتـاـ الـدـخـلـيـةـ؛ أـيـ ثـقـافـةـ الـأـوـرـيـةـ وـأـعـنـيـ بـهـ نـاحـيـةـ التـلـيمـ الـرـمـيـ، بـأـنـ تـكـوـنـ بـنـاـتـكـ الـعـطـرـةـ الـتـيـ تـصـلـاـ بـثـقـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ لـتـكـوـنـ مـعـلـاـ حـدـيثـاـ يـتـعـلـلـ فـيـ مـاـ يـصـلـنـاـ عـنـ أـورـبـاـ وـيـخـرـجـ مـنـ مـصـبـوـغاـ بـصـفـةـ مـصـرـيـةـ أـصـيلـةـ.ـ وـمـثـلـ الـأـزـهـرـ فـيـ ذـلـكـ كـلـ كـائـنـ حـيـ هـضـمـ وـلـمـ يـأـكـلـ؛ وـمـثـلـ التـلـيمـ الـرـمـيـ كـلـ كـائـنـ حـيـ أـكـلـ وـلـمـ يـهـضـمـ.ـ نـاحـيـةـ جـائـعـةـ،ـ وـنـاحـيـةـ مـنـخـومـةـ.

لـقـدـ ظـلـ الـأـزـهـرـ بـذـكـ الـلـبـرـ، الـتـيـ يـعـلـمـ مـنـ ثـقـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ غـيرـ مـكـيفـ بـعـصـبـاتـ الـعـصـورـ وـلـمـلـالـاتـ الـتـيـ قـامـتـ خـلـاـهـ، وـمـوـأـقـلـ تـكـيـيفـاـ بـعـصـبـاتـ.ـ هـذـاـ العـصـورـ مـهـ بـعـصـبـاتـ كـلـ عـصـرـ مـضـىـ،ـ أـمـاـ إـذـاـ آمـتـ بـأـنـ كـلـةـ اـنـقـاـنـةـ تـدـلـ عـلـ تـكـيـيفـ الـدـهـنـ تـكـيـيفـاـ تـارـيخـاـ أـوـلـ شـيـءـ،ـ وـقـصـدـ بـالـتـكـيـيفـ الـتـارـيخـيـ خـلـقـ تـصـورـاتـ جـدـيـدةـ مـنـ تـارـيخـ الـأـمـ الـقـديـعــ،ـ فـاـنـ هـذـاـ شـكـ إـذـنـيـ أـنـ الـأـزـهـرـ لـمـ يـتـعـلـلـ بـالـثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ مـنـ نـاحـيـةـ الـتـيـ تـخـلـقـ هـذـاـ التـصـورـ،ـ وـإـنـاـ أـتـلـ بـنـاحـيـةـ مـنـ ثـقـافـةـ التـقـلـيدـيـةـ صـدـتـ التـصـورـاتـ عـنـ الـأـبـنـاثـ فـيـ سـبـيلـ الـابـتكـارـ،ـ وـكـذـلـكـ خـلـ تـلـيـمـاـ الـرـمـيـ بـعـيـداـ عـنـ الـأـتـمـالـ بـثـقـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ مـنـ جـيـعـ نـوـاحـيـاـ تـقـرـيـباــ.ـ وـمـنـ هـذـاـ

ذـلـكـ الصـدـحـ المـتـنـاـيـيـ الـذـيـ نـاحـفـهـ قـاعـاـ بـنـ النـاحـيـتـينـ.

وـاقـدـ يـخـيـرـ إـلـيـ أـنـ مـاـ مـضـبـنـاـ فـيـهـ مـنـ بـحـثـ هـذـهـ النـاحـيـةـ كـفـيـ لـدـيـانـ هـمـ قـصـدـهـ مـنـ ضـرـورةـ الـأـتـمـالـ بـثـقـافـتـاـ التـقـلـيدـيـةـ مـنـ الـرـوحـةـ الـعـلـىـةـ.ـ أـمـاـ الـوـحـدةـ الـقـبـيـةـ الـعـاـمـيـةـ،ـ وـهـيـ

الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعية التي قامت حفافيـنا من الناحية الاقتصادية، فذلك ما سوف أصـورـ كـيفـيـة الاتصالـ بـها تـسـويـراً عمـلـياً لأنـ هـذـا هـوـ الغـرضـ الأولـ منـ بـحـثـنـاـ هـذـاـ.

إذا كانـ ماـ قـلـناـ صـحيـحاًـ مـنـ أـنـ التـعـلـلـ فـيـ مـصـرـ وـالـتـعـلـيمـ أـمـرـانـ مـتـصلـانـ أـشـدـ الـاتـصالـ باـعـتـبارـ أـنـ أـحـدـهـاـ مـرـضـ،ـ وـالـثـانـيـ عـلـاجـ،ـ فـالـوـاسـبـ يـقـضـيـ عـلـيـنـاـ بـعـدـ أـنـ أـظـهـرـنـاـ أـوـجهـ الـاتـصالـ أـنـ نـيـنـ عـنـ الطـرـيقـ الـعـلـيـ الـذـيـ يـعـلـمـ الـعـلـاجـ نـاجـيـاـ فـيـ القـضـاءـ عـلـىـ الدـاءــ.ـ وـلـمـ كـانـ ثـقـافـتـنـاـ الـتـقـلـيدـيـةـ مـنـ الـوـجـهـ الـمـعـاـشـيـةـ هيـ الزـرـاعـةـ تـحـمـمـ عـلـيـنـاـ بـحـكـمـ الـصـرـوـرـةـ أـنـ نـتـقـلـ دـرـجـيـاـ الـتـعـلـيمـ الـأـولـيـنـ أـيـ الـابـدـأـيـ وـالـثـانـيـ،ـ وـمـاـ الـدـرـجـاتـ الـتـكـوـنـيـتـاـنـ فـيـ مـرـاحـلـ الـتـعـلـيمـ،ـ مـنـ الـمـدـنـ الـقـرـىـ،ـ وـأـنـ تـقـيمـهـاـ عـلـىـ سـيـاسـةـ تـخـلـفـ اـخـلـافـاـ تـامـاـ مـنـ السـيـاسـةـ الـتـيـ يـعـرـيـانـ عـلـيـهـاـ الـآنــ.

\*\*\*

تـحـبـيـ سـيـاسـةـ الـتـعـلـيمـ الـآـدـيـ فـيـ هـاتـيـنـ الرـحلـتـيـنـ عـلـىـ أـسـاسـ نـظـريـ بـعـدـ عـنـ أـنـ يـعـلـمـ لـنـاـ أـيـ اـتـصالـ بـثـقـافـتـنـاـ الـتـقـلـيدـيـةـ مـنـ وـجـهـتـهـاـ الـعـقـلـيـةـ وـالـمـعـاـشـيـةــ.ـ وـلـاـ أـكـونـ مـنـاـيـاـ إـذـ قـلـتـ إـنـ هـذـهـ السـيـاسـةـ لـاـ تـمـلـأـ بـثـقـافـةـ أـورـباـ أـيـضاـ بـحـيثـ تـجـمـعـنـاـ فـادـرـيـنـ عـلـىـ فـهـمـ مـاـ نـتـقـلـ مـنـهـاـ فـيـ صـحـيـحاـ مـقـبـداــ.ـ وـمـاـ قـوـلـكـ فـيـ شـابـ يـخـرـجـ مـنـ الـتـعـلـيمـ الـثـانـيـ جـادـلـاـ بـلـغـتـهـ الـعـرـبـيـةـ وـأـصـوـلـهـاـ وـأـدـابـهـاـ،ـ غـيرـ مـتـصـلـ بـآـدـابـ ذـيـهـ غـيرـ طـارـفـ بـشـيـءـ مـنـ تـارـيخـ بـلـادـهــ.ـ وـبـالـأـخـرىـ مـنـ تـارـيخـ الـعـربـ أوـ تـارـيخـ مـصـرـ،ـ طـاجـزـ غـنـيـةـ الـتـعـبـيرـ تـعـبـيرـاـ صـحـيـحاـ بـأـيـ مـنـ الـأـقـرـيـبـيـنـ الـتـيـرـ يـتـلـقـاهـ فـيـ مـرـاحـلـ الـتـعـلـيمــ.ـ أـضـفـ إـلـىـ ذـكـرـ أـنـ هـذـاـ بـخـرـجـ مـنـ الـتـعـلـيمـ الـثـانـيـ غـيرـ مـتـصـلـ بـشـيـئـاـ مـنـ تـقـانـيـنـ بـلـادـهـ الـتـقـلـيدـيـةـ مـنـ الـوـجـهـ الـمـعـاـشـيـةــ،ـ غـيرـ مـتـصـلـ بـطـبـيـعـةـ الـأـرـضـ الـتـيـ أـنـدـأـهـ أـوـ بـطـرـقـ اـسـتـفـلـاـهـاـ مـشـحـونـ الـذـهـنـ بـنـظـرـاتـ وـأـوـهـامـ يـتـعـذرـ مـعـهـ أـنـ يـعـاـيشـ الـفـلـاحـ وـأـنـ يـدـركـ شـيـئـاـ مـنـ سـرـ حـيـاتـهـ وـتـقـالـيدـهـ وـخـطـرـاتـهـ وـنـفـسيـهــ.ـ فـكـأـنـاـ هـذـاـ الـتـعـلـيمـ خـلـقـ مـنـ حـوـلهـ جـوـاـ مـعـصـلـنـاـ وـبـيـةـ غـنـيـةـ غـرـبـيـةـ عـنـ طـبـعـهــ.ـ فـيـصـحـ بـذـكـرـ أـدـاةـ مـاطـلةـ فـيـ جـسـمـ الـأـجـيـجـ وـرـزـدـةـ حـبةـ لـتـبـرـهـ بـالـمـالـاتـ الـقـائـمـةـ مـنـ حـوـلهـ فـيـ مـرـبـادـهـ،ـ بـنـ وـمـشـأـ تـلـقـانـ وـمـرـنـاـ لـغـرسـ الـأـفـكـارـ الـمـغـرـرـةـ لـتـفـاهـةــ.ـ وـعـنـ الـجـهـةـ يـكـوـنـ مـرـدـاـ خـصـاـ لـغـرسـ بـرـودـ الشـرــ.

والفساد والعمل عن قلب النظم الاجتماعية طبعاً في الحصول على نظم تلاميذ كثياراته ، وتفقد  
ومؤهلاته التي أهلته التعليم لها . ذلك لأن كل عقلية لها تكوين خاص تتشدّد من طريقه داعماً  
البيئة التي ترضيها ، وغير التعلم المتعطل عن الاتساع إيماناً بحمله بمقتضى موجبات عقله الباطن  
على أن يدخل على تكوين البيئة التي تلائمه متخدلاً من النظم الاجتماعية التي نشأ فيها ، مادةً يجرب  
فيها مقدار ما في نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشديد ، على خلق البيئة التي ترضيه ،  
والنظم التي توأم عقليته وكثياراته . وما يكفي أن يقول لهم من شيء إلا ما يقول أول بالدور  
لأنهم من أهل يشته : بأنهم إذا مروا القسم القديق وأرسلوها أباديد ، فقد يتعدّل عليهم  
الاحتفاظ بالقيم الجديدة على وجه الاسترار .

إن الخطة الأولى التي ندعو إليها وهي نقل درجتي التعليم الأوليين من المدن إلى القرى  
خطورة ضرورية في علاج سياسة التعليم ، وهي خطورة الأساسية في وصل التعليم بثقافة البلاد  
التقليدية من الوجهة المعاشرة . أما الخطة الثانية فتقتصر في إقامة مدارس الحقول ، فتشدّد  
المدرسة على أرض فسيحة تكفي لأن تكون ميدانًا يحصل فيه الطلاب طرق الرااعة العملية  
على التواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم  
الثانوي ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية في هذه المدارس من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه  
الثانوي بعد عشر سنين ، فيخرج من المدرسة وهو من العمر ثان عشرة سنة أو عشرين  
سنة . فإذا أراد أن يتخصص بعد ذلك في التعليم العالي فعل ذلك ، ولكن بعد أن يكون قد  
اتصل بثقافة بلاده التقليدية وقام مطرداته على أساس عملي وشيد ، يكون إليه مرد ورقة  
إذا تخصص وغادر عن كسب رزقه الحال

## \*\*\*

هذا هيكل من الرأي يحتاج إلى شرح وجيز . فاما لا يعني أن تعليم الطلاب في تلك  
المدارس الراوية العملية يجب أن لا يصل الفال بالناحية النظرية ، وإنما يعني أن يكون  
أساس التعليم فيها الراوية العملية ، وما يصل بها من النعوم ، وبجانب ذلك تعليم نظري قائم  
في أول الأمر على الآثار بثقافة المصريين المتقدمة من الوجهة المغلبة ، مع المعاشرة بأمر

اللغات الأوروبية عنـا كـبرى حتى يـتـيسـر لـنـا الـاتـصال بـقـافـة العـصـر اـتصـالـاً وـثـيقـاً صـحيـحاً .  
أضـف إـلـى ذـكـرـه أـنـ الطـالـبـ يـسـبـي أـنـ يـلـقـى كـلـ ماـ يـتـصلـ بـالـاتـاجـ الصـنـاعـيـ منـ الـوـجـةـ الـرـاعـيـةـ ، فـيـخـرـجـ مـلـقاً بـطـائـةـ مـنـ الصـنـاعـاتـ الصـنـاعـيـةـ بـعـصـولـاتـ بـلـادـهـ الرـاعـيـةـ ، مـاـنـا بـسـرـهاـ وـوـجـهـ الـانـتـاجـ بـهـاـ . وـلـاـ أـغـلـيـ إذاـ قـلـتـ إـذـ كـثـيرـاًـ مـنـ الـذـينـ يـنـجـحـونـ مـنـ أـهـلـ أـورـبـاـ فيـ بـلـادـنـاـ أـكـثـرـ اـتصـالـاًـ بـقـافـةـ بـلـادـنـاـ التـقـلـيدـيـةـ مـنـ الـوـجـهـ الـمـيـشـيـةـ مـنـ الطـالـبـ الـخـرـجـ مـنـ كـلـيـةـ عـلـيـاـ مـنـ كـلـيـاتـ ، وـفـيـ هـذـاـ سـرـ نـجـاحـهـ الـعـمـلـيـ ، وـسـرـ تـعـلـ شـيـابـاـنـاـ عـنـ الـعـمـلـ . وـهـذـاـ يـتـحـمـ عـلـيـاـ أـنـ نـدـعـوـ إـلـىـ نـشـرـ الصـنـاعـاتـ الـتـيـ تـتـصـلـ أـوـلـ شـيـءـ بـتـوـجـاتـ الـرـاعـيـةـ ، وـأـنـ فـيـهـ نـصـفـ عـنـ غـيرـهـ الـأـنـهـاـ لـتـفـيدـنـاـ بـشـيـئـاـ فـيـ حـيـاتـ الـمـيـشـيـةـ أـوـ تـبـتـ حـلـاتـ الـاجـتمـاعـ الـرـمـيـةـ الـفـاـذـةـ ، وـبـعـاـصـةـ إـذـاـ وـعـيـاـ أـنـ دـورـ الـتـطـيـمـ عـلـىـ اـخـلـافـ نـوـاحـيـهاـ تـخـرـجـ كـلـ عـلـمـ عـدـداًـ مـنـ الـتـعـلـيمـ تـعـلـيـماًـ غـيرـ عـلـىـ زـائـداًـ عـنـ حـاجـةـ الـبـلـادـ .

وـأـنـاـ يـحـبـ أـنـ يـدـعـهـ الـتـطـيـمـ فـيـ الـحـقـولـ إـلـىـ حـيـاةـ أـخـلـاقـيـةـ عـمـلـهاـ أـنـ يـنـرسـ فـيـ طـبـيـعـةـ الـتـعـلـيمـ تـصـورـ جـديـدـ فـيـ شـرـفـ الـمـهـنـ الـتـقـلـيدـيـةـ الـتـيـ وـرـثـاـهـاـ عـنـ أـسـلـانـنـاـ ، أـلـاـ وـهـيـ الـرـاعـيـةـ .  
فـإـنـ الـتـبـذـيـجـ يـحـبـ أـنـ يـضـعـ يـدـهـ فـيـ كـلـ عـلـمـ يـعـكـنـ أـنـ يـؤـدـيـهـ الـفـلـاحـ بـنـفـهـ ، وـإـنـ يـتـصلـ غـيرـهـ طـرـيـقـ عـضـالـهـ بـكـلـ مـاـ تـنـظـلـهـ هـنـهـ الـرـاعـيـةـ مـنـ أـهـمـ جـمـيـعـهـ ، وـإـنـ لـاـ يـرـىـ فـيـ ذـكـرـهـ غـيرـهـ سـادـداًـ لـعـرـتهـ أـوـمـذـلاًـ لـنـفـهـ .

\*\*\*

أـورـتـاـ الـحـكـمـ الـتـرـكـ الشـوـمـ عـلـةـ اـحـتـقـارـ الـفـلـاحـ ، لـاـ كـلـهـ «ـفـلـاحـ»ـ كـانـ تـواـزـيـ خـدـ  
الـتـرـكـ أـحـدـ أـلـفـاظـ الشـيـمـ وـأـئـمـنـ كـلـاتـ الـبـابـ . وـلـعـلـ الـأـمـدـ الـقـيـ مـنـهـ أـنـ يـسـعـ فـيـهـ  
هـذـهـ الـكـلـمـةـ مـرـدـيـةـ ذـكـ المـعـنـيـ ، شـرـسـ فـيـ طـبـيـعـةـ الـمـعـرـيـنـ أـقـصـمـ ، بـطـرـيقـ التـكـرارـ  
وـمـوـحـيـاتـ الـقـلـ الـبـاطـلـ ، مـيـلـ إـلـىـ اـحـتـقـارـ الـفـلـاحـ وـاـحـتـقـارـ هـنـهـ ، وـالـاعـتـقادـ بـأـنـ الـعـمـلـ  
الـبـدـويـ فـيـ الـرـاعـيـ أـنـاـ هـوـ عـقـابـ شـيـ مـرـقـ لـنـفـسـ خـادـشـ لـعـزـةـ . وـأـنـ تـرـىـ أـنـ الـأـعـرـابـ  
فـيـ مـصـرـ قـدـ اـتـجـلـواـ هـنـهـ الـعـادـةـ . فـالـكـادـمـاتـ أـعـرـابـ أـفـلـاحـ أـنـتـ ؟ـ أـجـابـكـ عـلـىـ الـفـوـرـ  
«ـكـلـاًـ أـنـاـ أـعـرـابـ»ـ ، وـلـكـ بـنـبرـاتـ تـدلـ عـلـىـ أـنـ يـتـبـعـ الـكـلـمـةـ اـعـتـداءـ عـلـىـ مـكـاتـهـ السـامـيـةـ ،

وقد يكون من خناش الناس ومن ذؤبان العرب ، مهامل الشباب فنر المنظر والغبار .  
ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا فضي خدمته العسكرية  
وسرح من الجيش ، أنسف أن يعود إلى المقل ، أو أن يحمل المحراث ، أو يقود الماشية ، فإذا  
عجز عن أن يكون شرطيا ، فضى وقته في القرية ماطلا أو محترفا حرفة أخرى غير الزراعة ،  
فتتجده نجاراً أو حداداً لا يملك ثوت يومه . وقد يطرف بعضهم في احتقار مهنة آبائه  
فيخشى المجالس عازداً على قيئارة ، لأنـه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنـما هو  
يعتقد أنـ الاستجدة بالمرف على قيئارة أشرف من العمل في المقول . ولاشك في أنـ هذه  
الظاهرة قد أورقتنا نقصاً تقنياً يمكن تعليمه علينا ، ولكنـ ليس هنا مكان لايصاله .  
ولكنـ ذلك لا يحول دون التوصل بأنـ هذه الظاهرة من السهل علاجها لأنـ نورـاً أولادنا  
الاعتقاد بشرف المبنـة التي تربـي جـوـهم ، وعليـها قـامت مدـنيـتهم مـنـذـ أـقدمـ العـصورـ ، عـلـى  
أنـ شـهـمـ، أـولاًـ أـنـ لمـ مـدـنـةـ وـمـاضـيـ جـدـيرـينـ بـالـاحـترـامـ .

\*\*\*

والمحصل إنـ نخلص من تأثير التعطل إلاـ بالاتجاه إلى إقامة مـيـاهـ التعليمـ علىـ قـوـاءـ عـدـ جـديـدةـ أـمامـهاـ الأولـ الرـجـوعـ إـلـىـ تقـافـتـاـ التقـلـيدـيـةـ ، فـخـرـجـ رـجـالـ مـيـنتـلـيـنـ بـأـقـسـمـ ،  
يـرـفـونـ كـيـفـ يـرـجـعـونـ إـلـىـ حـضـرـهـ أـمـمـ الـأـوـلـ «ـ مصرـ» إـذـاـ أـرـادـواـ الـحـيـاةـ سـيـعـةـ هـنـيـةـ .  
وـمـنـ أـجـلـ أـنـ نـمـرـ إـنـ هـذـهـ النـتـيـجـةـ يـنـتـيـ لـنـ أـنـ نـتـعـجـيـ أـسـلـيـاـ مـعـنـاـ يـنـحـصـرـ فيـ  
تـبـيـذـ الـأـقـيـ .

أـولاًـ — جـمـعـ مـدـةـ الـعـلـمـ الـابـدـائـيـ وـالتـارـيـ عـشـرـ سـنـواتـ يـعـرـجـ فـيـهـ الـعـلـمـ  
الـنـظـريـ بـالـعـلـمـ الـعـمـليـ الـرـاسـيـ ، وـأـنـ يـغـرسـ فـيـ الطـلـابـ رـوحـ الـاعـتـقادـ بـشـرـفـ هـنـيـةـ أـمـمـ  
الـتـقـلـيدـيـةـ ، وـأـنـ يـقـرـنـ هـذـاـ نـتـيـجـ بـتـقـيـنـ الـعـنـادـاتـ الـرـاءـيـةـ وـيـخـاصـةـ مـاـ يـنـطـلـقـ بـأـرـادـةـ  
الـسـلـيـةـ مـنـهـ .

ثـانـيـاـ — درـسـ تـارـيـخـ الـمـرـبـ وـالـصـرـيـنـ درـسـ تـحـلـيلـيـاـ وـاـنـيـاـ .

ثـانـيـاـ — درـسـ مـادـيـ الـعـلـمـ وـالـآـدـابـ الـعـامـةـ وـهيـ الـجـوـةـ الـيـ تـلـقـ بـهـ عـنـولـنـاـ مـنـ  
الـقـافـةـ الـحـدـدـةـ

رابعاً - درس مبادئ الأدب ومبادئ الدين العليا .  
 خامساً - درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وأثارهم وأعيادهم ، وعن الجهة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة .  
 وهناك بجانب هذه أشياء يجب أن يُهتمَّ بها الناشئ ، بمعرفتها ، ولكنها جميعاً تناولت  
 على هذه الأصول فلا محل لذكرها .

فذا تخرج الطالب وهو من العمر ثمانى عشرة سنة أو شرين ، أصبح على الحكومة أنه  
 ولجيأً تزويجه ، هو أن تتعهد فضبة من أرضها المملوكة يودي لها فيها فناً ذائلاً على أساس  
 طرولة ، وأن تهدى برأس ما يملكه إلهاً يسدده مع ثمن الأرض ليكون عونه على إعداد  
 عنده حياة العمل والكتاب .

\*\*\*

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق النماء على التعطيل ، وإخراج جيل جديد  
 مذشلاً على طرق ضلالة ، جيل مكافح عامل خالٍ من آثار الامراض الاجتماعية ، جيل يشعر  
 بأنه مستقل في الحياة ، وأن له عزة الرجولة وشرف الاقتساب إلى مصر المغالة ، جيل هو  
 جيل الاستقلال الحقيقى والعمل ضد التسلل .

